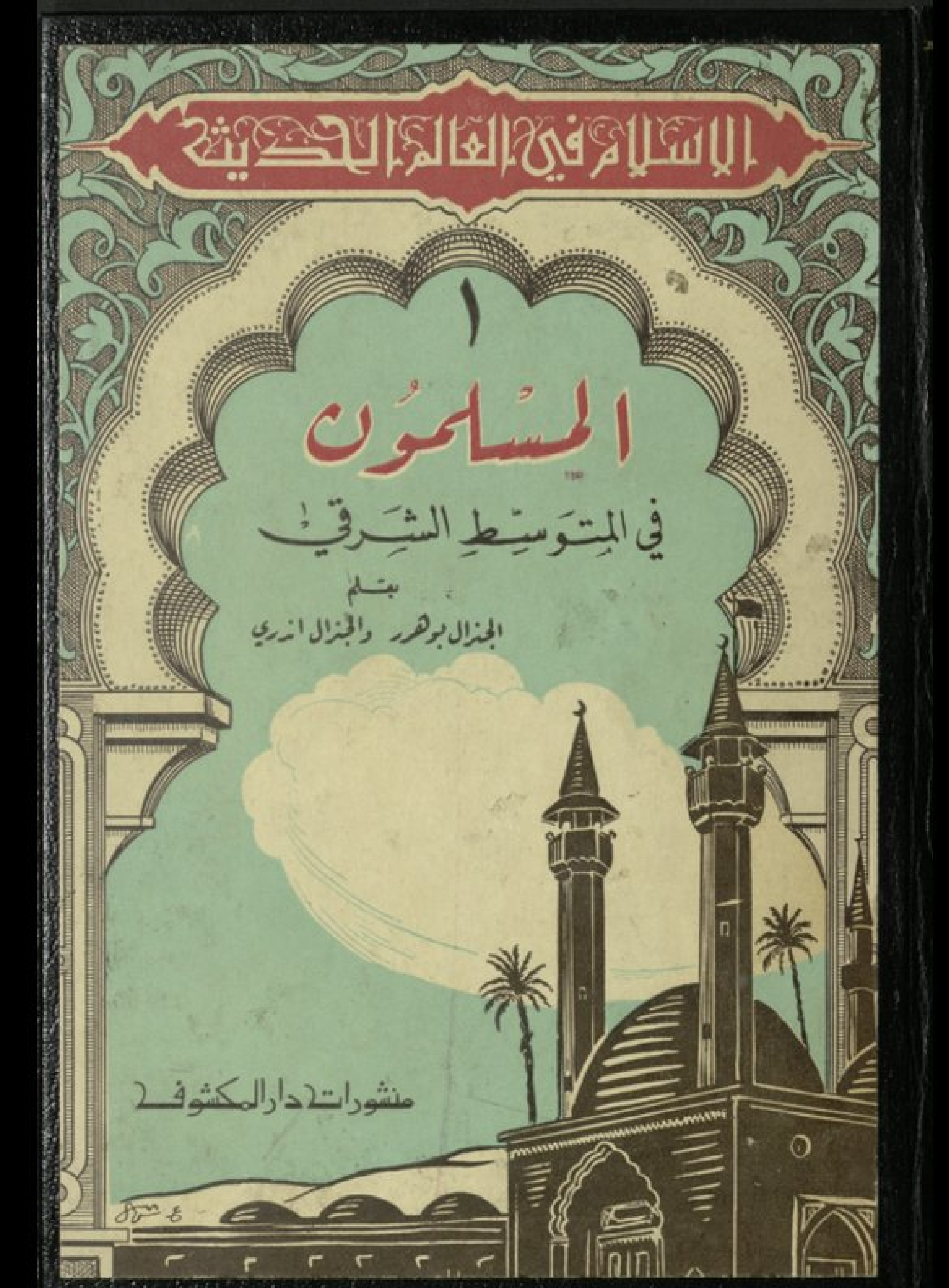
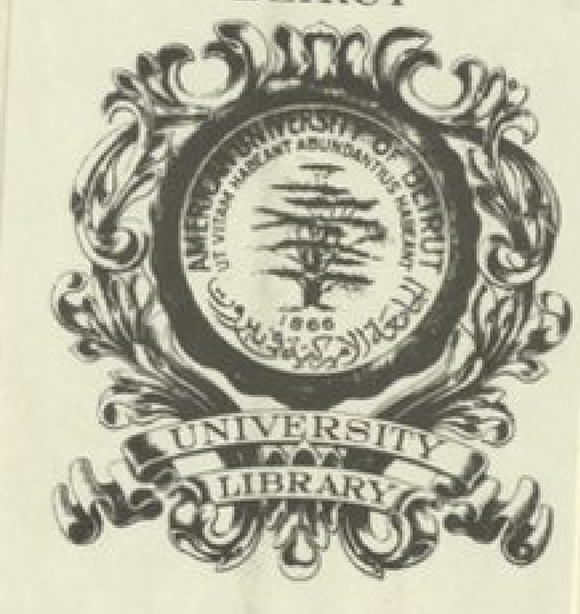
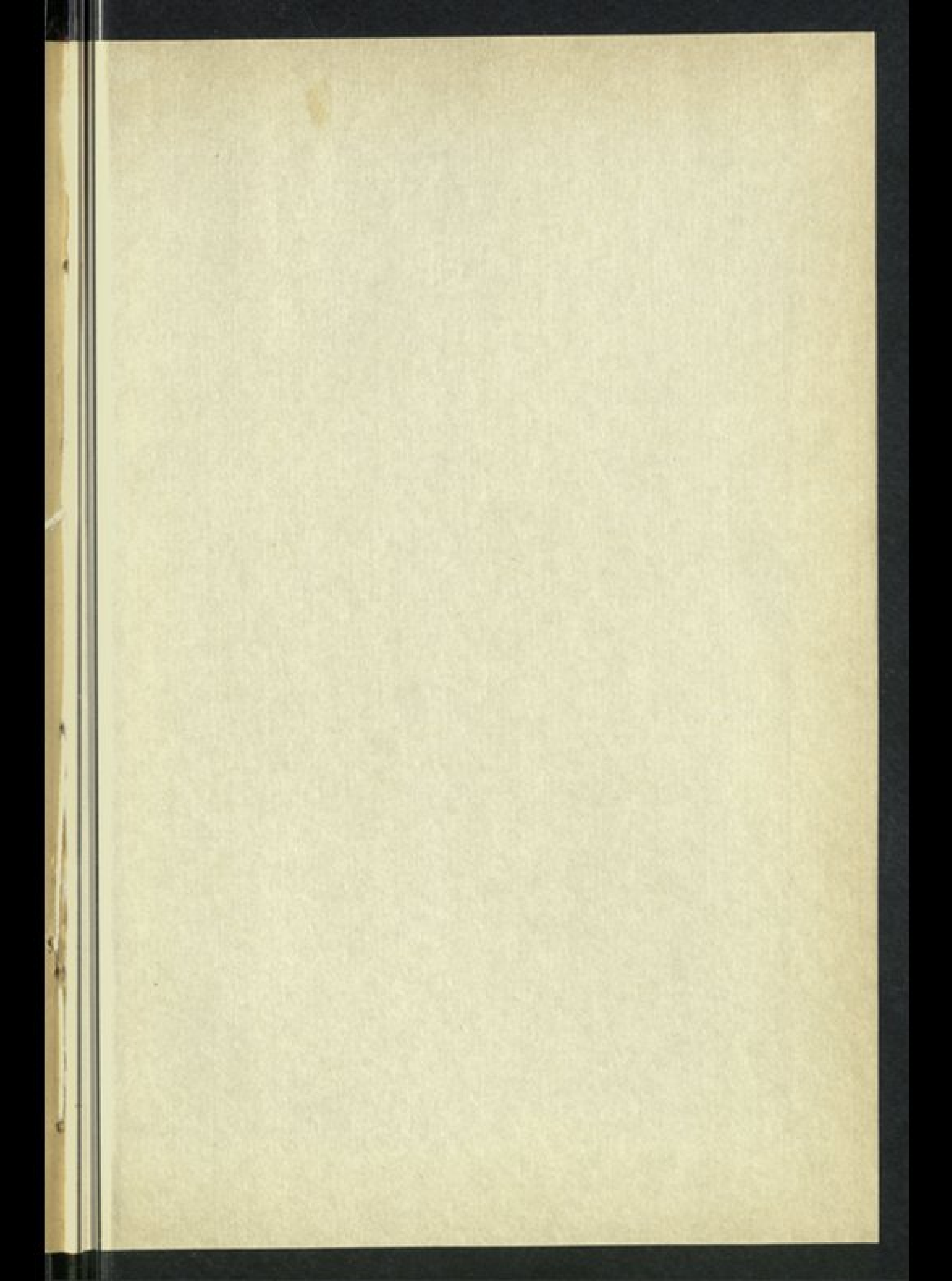
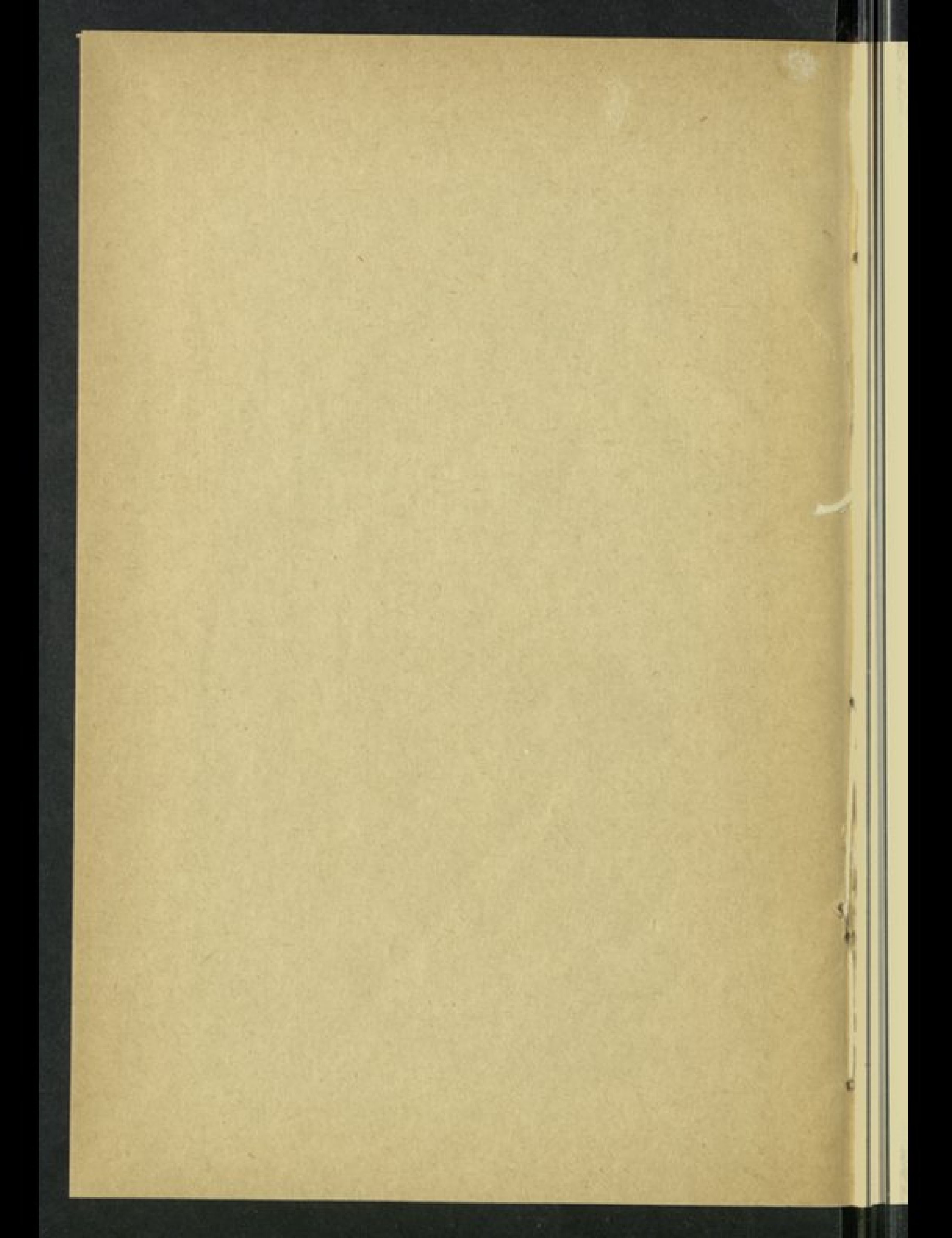
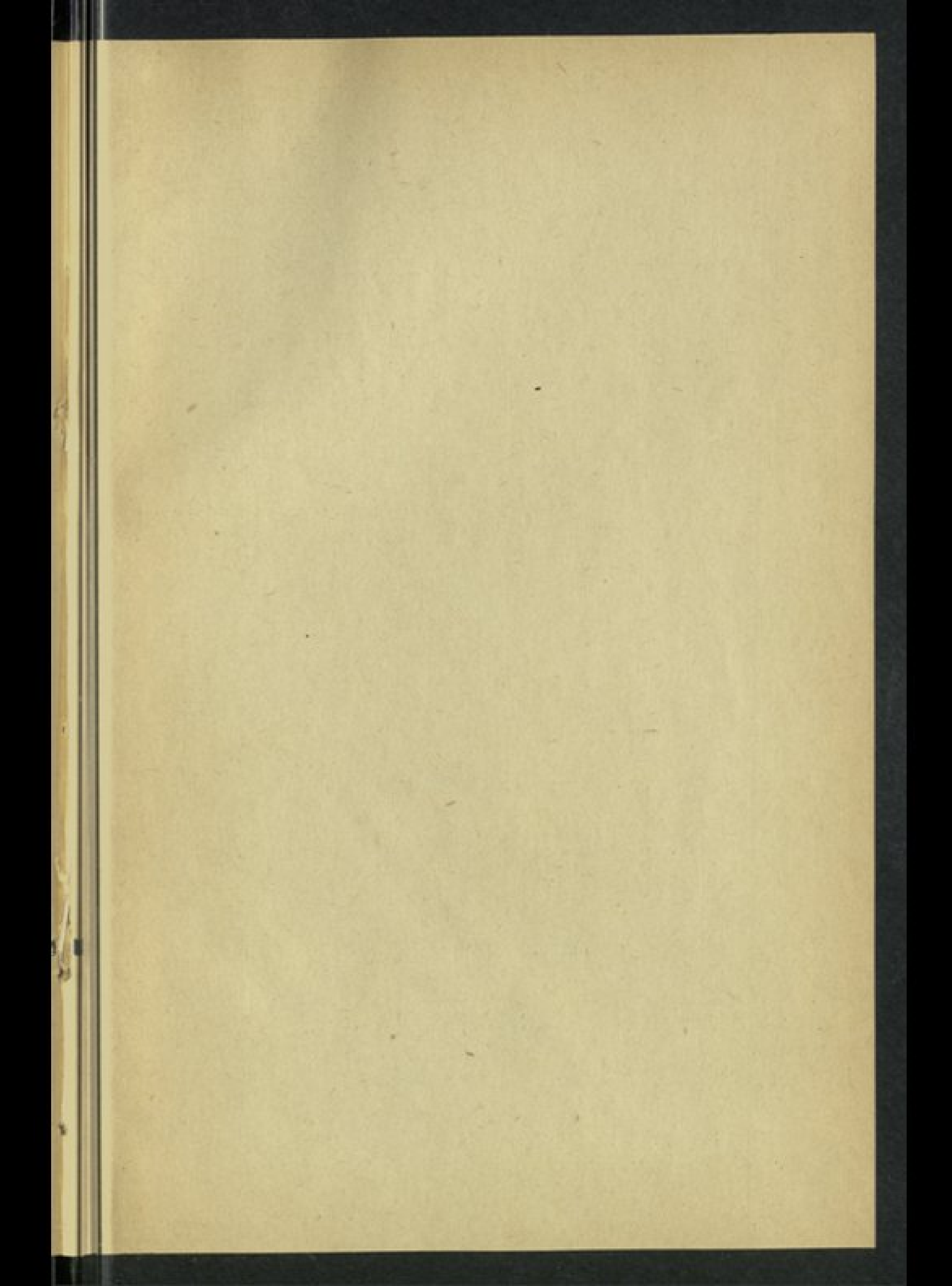


الإسلام في العالم الحديث
١
المسلمون
في المتوسط الشرقي
بقلم
الجنرال بوهرر والجنرال اندري
منشورات دار المكشوف


AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY







الجنرال بوهرر و الجنرال آندري

الاسلام في العالم الحديث

١

المسلمون في المتوسط الشرقي

نقله الى العربية

لويس الحاج

منشورات دار المكشوف

الطبعة الاولى ، بيروت — لبنان ، اذار ١٩٥٣

كلمة المعرب

تزداد عناية الغربيين بالشرق وبسكانه وشؤونهم الماضية والحاضرة والمقبلة بنسبة تطور هذا الشرق ومحاولته استعادة حريته واستقلاله وامجاده الغابرة . وتبرز هذه العناية ، اكثر ما تبرز ، في الدول الغربية التي بسطت سيطرتها المطلقة على الشعوب الضعيفة ، فاستعمرت بلدانها ، واستغلت خيراتها ، فقوي نفوذها وامتد ، وتضاعفت ثروتها ووفرت دون ان يصيب الشعوب المقهورة من ذلك غير الذل والفقر والانحلال المادي والمعنوي وما يخلفه من شقاء ومرض وجوع وخوف ، حتى كانت الحرب العالمية الاولى فاضطر المستعمر لان يفيد من خدمات ابناء مستعمراته ، وان يخالطهم ويعايشهم ، فترتب على هذا الاحتكاك زوال الهيبة التي كانت للمستعمر في نفوسهم وسقوط الستار بينه وبينهم ، فاذا هو وهم اخوان في الضراء ، فلماذا لا يكونون اخواناً في السراء كذلك ؟

وجاءت المبادىء الماركسية والمناداة بحق الشعوب، على اختلاف الوانها وامصارها ، في الحرية والاستقلال ، تزيل ما بقي من حواجز بين الاقوياء والمستضعفين ، وساهم انتشار العلوم والمعارف في تحرر الشعوب المقهورة من مركب الخوف ومركب النقص ، ناهيك بالتشجيع الذي لاقته تململات هذه الشعوب وانتفاضاتها من جانب الدول الكبرى التي فاتها قطار الاستعمار .

ولما كانت الشعوب الاسلامية في افريقيا وآسيــا في طليعة شعوب القارتين من حيث قابليتها للتطور والاخذ باسباب الرقي ، فقد كانت السبّاقة في مضمار السعي الى التحرر من السيطرة الاجنبية ، وكان للعرب فضلهم الذي لا ينكر في حمل مشعل النهضة وتوجيه الحركات التحررية . وبديهي ان تتعثر خطى الاستعمار وهو يصادف في طريقه عقبات اقامتها ارادة شعوب متوثبة ، وبديهي كذلك ان يظل هذا الاستعمار سادراً في غيّــه معتمداً القوة والبطش وسيلة لفرض اساليبه وسيطرته ، فهو يستمد قوته ونفوذه العــالميين من « المدى الحيوي » الذي احرزه بحد السيف تارة وبالحيلة طوراً . ولكن القوة والبطش لم يطفئا الجذوة المتأججة .

وكانت الحرب العالمية الثانية نقطة التحول في تاريخ الاستعمار ، فقد ادرك المستعمرون ان العتاد البشري الذي اعتادوا تعبئته في البلدان المستضعفة لن يقاتل في صفوفهم هذه المرة يقبض الثمن ، فبذلوا له الوعود وخففوا من وطأة استعمارهم بعض الشيء ، واضطروا في البلدان المتطورة نسبيــاً الى الاعتراف لشعوبها بالاستقلال الذاتي والحرب في ابانهـا ، واضطرتهم الولايات المتحدة الاميركية ، بعد ان وضعت الحرب اوزارهــا ، الى هجر اكثر من اسلوب من اساليب الاستغلال والاستثمار .

واليوم يتعــالى في وجه الغرب المستعمر هدير الثورة في كل مكان ، فالشعوب التي تلقت وعوداً قــامت تستنجز المستعمرين وعودهم . والشعوب التي ذاقت حلاوة الاستقلال الذاتي او النوعي تريد ان تنعم بالاستقلال الناجز . وتـلاقي هذه الحركات التحررية تشجيعاً من جانب الولايات المتحدة الاميركية وروسيا السوفياتية:

هذه لانها تعتبر المستعمرات العمود الفقري في هيكل للدول الغربية ، وتلك لان الاستعمار العسكري والسياسي والاقتصادي لا يساير اهدافها كدولة تريد اغراق الاسواق بمنتجاتهـــا وغزو الامصار بمثاليتها ورسالتها الثقافية التبشرية .

وحيال هذا التطور الخطير تبدر من الدول الاستعمارية بوادر تنم عن استعدادها للتفاهم والشعوب المقهورة ، ولكنها لا تذهب في استعدادها الى حد التخلي عن كل شيء ... انها لا تعارض في الاعتراف للشعوب بحق حكم نفسها بنفسها ، ولكنها تتشبث بما لها من مصالح اقتصادية ومواقع استراتيجية ومركز ثقافي ممتاز .

وفي هذا الصراع بين الغرب الضنين بما هو في قبضته والشرق الثائر ، ترتفع اصوات من هنا وهناك مهيبةً بهما ان يتفاهما ويتعاونا ليستطيعا الوقوف في وجه العملاق السوفيـــاتي . وفي عداد هذه الاصوات صوت القائدين الفرنسيين مؤلفي هذا الكتاب . وقد رأينا ترجمة مؤلفهما لا ايماناً منا بانهما يصدران عن اقتناع واخلاص في ما يبديان من آراء ومقترحات ترمي كلها الى التوفيق بين العالم الاسلامي والغرب ، بل رغبة في اطلاع العرب والمسلمين على بعض ما يقوله الغربيون في نهضتهم ومداها واهدافها .

لويس الحاج

تقديم

يسعدني ان اقدم الى الجمهور هذا الكتاب الذي يعالج موضوعاً هو احد مواضيع الساعة : تطور الاسلام . اما مؤلفاه فهما الجنرال ج . بوهرر الرئيس السابق لهيئة الاركان العامة لقوات المستعمرات ، والجنرال ب . ج . اندري وقد كانا ، كلاهما ، من معاونيّ المخلصين طيلة سنوات ، وما تزال تشدهما اليّ عرى الصداقة والود.

اعطى المؤلفان ، خلال سني خدمتهما ، اجمل ما في ذاتهما من اجل عظمة الامبراطورية الفرنسية ، وها هما يجتهدان ، في تقاعدهما النشيط ، في خدمة قضية التعاضد بين فرنسا وممتلكاتها ما وراء البحار . ولا ريب في ان الذين يطالعون هذا الكتاب – وهو ثمرة خبرة طويلة وتفكير عميق – سيشاطرونني الشعور بان المؤلفين قد وفقا توفيقاً كاملاً .

بعد ان يدرس الجنرال بوهرر وزميله وضع الاسلام في اوروبا والشرق الادنى وافريقيا وآسيا ، يقطعان بان الانقلابات التي غيّرت شكل العالم منذ ١٩١٤ قد كان لها تأثيرها الكبير في مسلك السكان الذين يعيشون تحت شعار الهلال . وقد فقد الاسلام ، عقيب قيام الثورة التركية ، الخلافة التي كان يستمد منها وحدته ان لم نقل قوته ، واليوم يجتهد الاسلام المعاصر في بعث هذه الوحدة على الصعيد الروحي .

في الحقل السياسي ، رأينا الشعوب الاسلامية تجتاز حقباً منوعة تخللتها تباعاً حركة الوحدة الاسلامية ، فحركة الوحـدة العربية ، فحركة الوحدة الطورانية ، وهي تنزع في ايامنا – متأثرة بتطور السياسة العالمية – الى تخطي دور الامة ، على امل الوصول الى التحسس بالوطن الاسلامي الذي يضم المؤمنين في شتى القارات . ويمكن منذ الآن تقدير النتائج السياسية والاجتماعية لهذا التطور الاسلامي في المناطق التي يعيش فيها ملايين وملايين من المسلمين .

ويبدو ان حكومة روسيا السوفياتية قد سبقت سائر الحكومات الى وعي اهمية هذا التطور ، وراحت تسعى ، في محاولتها اخضاع العالم لسيطرتها ، والى استغلال هذا الشعور الجديد لدى المسلمين الذين يعيشون على الارض الروسية ، والمسلمين المنتشرين في البلدان المتاخمة للاتحاد السوفياتي . من اجل هذا يقوم الروس بدعاوة بارعة ، مغلفة ، هدفها اجتذاب المسلمين الطورانيين الى فلك السوفيات . واننا لنقع على اثر هذه الدعاوة في المناطق الافريقية والاسيوية وفي الشرق الادنى حيث يتجلى تطور الاسلام السياسي باجلى مظاهره .

فمصنف الجنرال بوهرر والجنرال اندري يظهر ، والحالة هذه ، في وقته ، وضعه ، بروح منزه عن الاهواء وبتجرد تام ، فرنسيان احتكا بالسكان المسلمين في بقاع شتى من العالم ، وراقباهم بعطف ، وتوخيا ايجاد الحلول الممكنة ، ان لم نقل اليسيرة ، للمسائل التي يثيرها تطور الاسلام . وقد حددا ، في اطار الاتحاد الفرنسي ، العلاقات التي يجب ان تقوم بين فرنسا والشعوب الاسلامية ما وراء البحار ، وذلك صوناً لمصلحة الطرفين . واني لاشاطر المؤلفين اقتناعهما بان الاسلام ، هذا المحرك القوي لملايين المؤمنين ، لا يعقل ان يبقى مكتوف اليدين

حيال الاحداث التي تهز اوروبا – آسيا (اوراسيا) واوروبا - افريقيا (اورافريقيا) . واراني ، مثلها ، مقتنعاً كذلك بان فرنسا تعرّض نفسها لاخطار جسيمة ان هي اخطأت في تقدير مدى تطور الاسلام المعاصر وتركت الاحداث تسبقها .

ادوار دالادياه

مقدمة

عدتُ من افريقيا الغربية في آب ١٩٢٤ بعد اقامة طويلة وجدتني خلالها مسوقاً الى الطواف بحيز كبير من افريقيا السوداء. وبعد ايام من وصولي الى باريس قضت مشيئة وزير صديق باستدعائي الى شارع « اودينو » حيث يقوم مقر وزارة المستعمرات (ولم يكن هذا الاسم وقتئذ ذا معنى مقيت وغير مرغوب فيه). وقد رغب اليَّ رئيسي ان آتيه بضابط شاب ذكي، ليلحقه بمكتبه ويفيد، عند الاقتضاء، من معلوماته بصدد المسائل ذات الطابع الاستعماري. فنصح لي الكولونيل آمر كتيبة المشاة الاستعمارية الثالثة والعشرين بأخذ ضابط برتبة كابتن، وقال في وصف مرشحه بانه ذو عقل راجح ونضج يندر ان يتحلى به شاب في مثل سنه، وانه محيط بشؤون ما وراء البحار احاطة تامة.

كان الضابط فتى فذاً بالفعل، ابرزت الحرب الكبرى الاولى ما يتحلى به من ذكاء وشجاعة ونشاط. وقد طوّح به ميله الى المغامرة فالقاه تباعاً في المحيط الهندي، فمدغشقر، فزنجبار، فسواحل البحر الاحمر القاحلة، فكان تارة قبطاناً متمرناً، وطوراً قرصاناً (هذا ما يقوله هو عن نفسه). كان يجري وراء المعلومات هنا وهناك وهنالك. وبدأ يتعرف الى الاسلام، وما لبث ان اضحى الاسلام، بالنسبة اليه، مـا هو التبغ بالنسبة الى المدخنين. وبعد الحرب تابع، في الشرق

الادنى وفي نطاق ما يسميه الانكليز دائرة الاختبارات ، « عمله الشاق ، المحفوف بالمخاطر ، الحافل بالدروس ، والذي لا يمكن المرء ان يؤديه بنجاح ما لم يلبس لكل حالة لبوسها ، وما لم يكن محيطاً احاطة تامة بالاعراق والديانات والعادات والتقاليد واللغات .»

وقد اعجب بنشاطه وزير لم تكن لديه فكرة عما تستطيعه هذه الملاكات الاستعمارية التي تشوقها المغامرات بقدر ما كانت تشوق فاتحي الامبراطورية ، ولكنها تحل معرفة البشر والشعوب المحل الاول من اهتمامها ودروسها .

واصبح الضابط فيما بعد معاوناً ثميناً لي وصديقاً وفياً ، يشاطرني رأيي في وجوب الاستمرار في العمل ما دام الانسان قادراً على العمل جسدياً وعقلياً . لهذا رأى – وهو المحال الى المعاش بعد ان بلغ في حياته المسلكية ارفع الرتب العسكرية – ان يتيح في هذه الفترة الدقيقة للذين يضطلعون اليوم بمهمة الاشراف على مقدرات الامبراطورية الفرنسية حيث يعيش الملايين من اتباع النبي ، رأى ان يتيح لهم ، في وقت تعز فيه الكفاءات ، ان يفيدوا من خبرته في شؤون الاسلام ومن معرفته بكل ما يتصل بالعالم الاسلامي .

ان ما يلقاه هذا الكتاب من تقدير يعود الفضل فيه الى الجنرال ب . ج . اندري : الى معرفته التامة بالاسلام والمسلمين ، وتوفره على الدرس ، والى ابحاثه المستمرة وتضلعه من اللغة العربية ، والى همته التي لا تفتر . اما دوري انا فقد كان مقصوراً على الترتيب والتنسيق مضافاً اليهما خبرة شخصية ودراسة شاملة للحركات الكبرى التي تهز العالم في ايامنا .

لم يوضع هذا الكتاب ليُلقى بين ايدي ارباب الاختصاص من

دون سائر الناس . فهو يقدم الى المواطنين اكثر من دليل على ان الاسلام هو غير الشرق بزيفه وصبيانياته . انه احدى الحركات العالمية الكبرى التي يمكن ان تشكل ـ اذا اسيء توجيهها ـ خطراً كبيراً على البشرية في تلمسها سبيلها الجديد .

في العام ١٩٢٢ ظهرت للجنرال ب . ج . اندري (وكان ضابطاً برتبة كابتن) دراسة حافلة بالاسانيد عن الاسلام والاجناس . وقدم الكتاب هنري فرواديفو بكلمة جاء فيها قوله : « في هذا الكتاب ينير الماضي سبلَ الحاضر ، فالوقائع العنصرية والدينية والتاريخية ـ العسكرية في امنا تجد تفسيرها في دراسة يقظة للاحداث السابقة . »

وفي العام ١٩٢٤ ساهم الكبتن اندري في كتابه « الاسلام الاسود » في درس اهداف الفِرَق الدينية الاسلامية في افريقيا الغربية . وقد لفت الحاكم العام « كارد » الخبير بالشؤون الاسلامية ـ وكان المؤلف رئيساً لمكتبه ـ الى هذه الدراسات « الذين يشرفون على مقدرات امبراطوريتنا الافريقية . »

هذا الكتاب ، الذي يرافق الاسلام في تطوره ، يهدف الى تحديد مركز الاسلام بعد سلسلة الانقلابات التي ما فتئت تهز ، منذ سنة ١٩١٤ ، سكان البسيطة كافة ، اياً كانت اجناسهم واديانهم . ولا يكتفي هذا الكتاب بتقرير ما هو حاصل ، بل يواجه الحوادث الحاضرة التي تهدد بجرّ الشعوب الى نزاع جديد قد تكون فيه نهاية الحضارة ، باحثاً عن الوسائل والاساليب التي تتيح للاسلام ، باتباعه البالغ عددهم ٣٠٠ مليون ، ان يتبوأ مركزه الجديد في عالم يفهم اخيراً واجبات البشر وحقوقهم .

الجنرال بوهرر

مدخل

بين الحركات الدينية الكبرى والفكرية التي اقامت الدنيا واقعدتها ، نجد ان الاسلام هو ، على العموم ، الحركة التي لم يُعنَ الباحثون العناية الكافية بدراسة جوهرها . ولئن يكن تطور الاسلام في السنوات الاخيرة قد استرعى انتباه المتوفرين على الدرس والتحليل ، فقد ظل ، على عمقه وخطورة عواقبه ، مجهولاً لدى الجمهور .

يطبق بعضهم على درس هذه الحركة الدينية اساليبَ البحث العلمية المطبقة على الاشياء المفروغ من امرها ، مع اننا حيال شجرة حية ذات ارومة غائصة في لجة الماضي ، وقد تكوّن جذعها ببطء وبشيء من الصعوبة . وها هي اغصانها ، التي تنمو قوية ولكن بغير نظام ، تحاول اليوم ان تحتل مكانها تحت الشمس وسط غابة كثيفة من المثاليات والمبادىء والاوضاع الراهنة . والاسلام ، هذه القوة العالمية التي اجتازت اكثر من امتحان ، والتي لها حوافز ذاتية لا تُقاوم ، يمكنه ان يتطور وان يتحول في بعض الحالات وان يظل هو اياه .

ولفهم الشعوب الخاضعة لشريعة الاسلام في عالمنا الحالي ، ينبغي للباحث ان يتجنب مزالق استشراق لا قيمة له ولا فائدة ترجى منه . ومن الخطأ اعتبار التوفر على درس العقائد والتاريخ كافياً لتفسير مسائل الساعة وحلها . فالشعوب الاسلامية ، مع بقائها

خاضعة للتقاليد الدينية خضوعا يتجلّى في ايمانها بالله وبرسوله محمد ، هي اليوم كسائر الشعوب على اختلاف اجناسها والوانها ودياناتها مسيّرة بقوة غالبة تدفعها الى الامام على طريق الحرية والتقدم .

ومن دواعي الاسف ان هذه القوة تعمـــل بسرعة بحيث لا تتيح للشعوب ان تتابع تطورها بهدوء وروية . وقد وجد ابناء الاسلام انفسهم وسط التيارات التي تهز العالم وتتقاذفهم بقوة وعنف ، وهم بعد حديثو العهد بفكرة الامة والوطن .

في العام ١٧٨٩ كان للمبادىء التي انبثقت عن الثورة الفرنسية صداها حتى في الشرق . واليوم تظهر مثالية جديـــدة : « فكلمة « الاستقلال » هي على كل شفة ، تلفظ بجميع اللغات . وهذه الكلمة السحرية التي هزّت اوروبا واميركا ، لقرن ونصف قرن مضيا ، تقلب اليوم احوال آسيا وافريقيا رأساً على عقب . وعدوى الانتصارات السياسية ، التي احرزتها هنا وهناك الشعوب الملوّنة على اوروبا المتعبة ، تنتقل بسرعة الى الادنين والابعدين . فقد حمل تحرر الهند بورما على رفض كل رابطة تشدها الى الامبراطورية البريطانية ، وادى الى تقوية الشعور الوطني الشديد الصلف في الهند الصينية واندونيسيا . واننا لنرى النخبة في نيجيريا - وهي تضم عناصر الفت جيلاً وسط قبائل كانت في الامس من عبدة الارواح - تستشهد بما بلغت اليه اثيوبيا من حرية واستقلال للتدليل على اهليتها هي للتمتع بالميزة نفسها .

« هذه الحركات التي تثيرها حمّى التقليد يزيد نطاقها اتساعاً ، وتستحث خطاها تدخلاتٌ بعيدة المصادر . ففي دكار رحب مؤتمر الاتحاد العالمي للنقابات بقيام حلف بين قوى البروليتاريا والعنصرية السوداء الافريقية ، ممهداً بذلك امام الاتحاد السوفياتي حقلاً جديداً

للعمل في بقاع تعدها امم اوروبا الغربية بمثابة ممتلكات لها .

« وقد رأينا هندستان تهاجم ، في المجالس الدولية ، جنوب افريقيا متهمة اياها باعتماد سياسة التمييز بين العناصر . ورأينا هندستان تشجع في لندن زعماء افريقيا الغربية ، بينا كانت البعثات الدينية الاسلامية (الاحمدية) تغادر الباكستان الى داهومي حاملة وايها اسلاماً يساير روح العصر .

« وفي بعض الاحيان تبدو لنا معارضة شعب من الشعوب او قوم من الاقوام محض محلية ، ولكنها تستنجد في الواقع بقوى موزعة في الدنيا قاطبة . وها هو النزاع بين القومية اليهودية والعروبة والاسلام يجر الى الحلبة عدداً لا يحصى من انصار الفريقين في العالم ، كلّ هذا من اجل البت بمصير رقعة صغيرة في حوض البحر المتوسط . ومن هنا يبدو لنا جلياً انه لم يبق في آسيا وافريقيا قضية منعزلة .

« وفي كل مكان يتفاقم النزاع بين العمل ورأس المال تفاقماً لا يمكن تقدير عواقبه . وفي الوقت نفسه يقوم في آسيا وافريقيا ، من الصين الى مراكش ، في ذهن النخبة الفتية التي أبعدتها الثقافة العصرية عن التقاليد الموروثة ، صراع شديد بين الماضي والمستقبل ، صراع داخلي يثير في كل مكان الحيرة نفسها ، ناهيك بالشكوك والاضطرابات . وتبرز الازمات الاقتصادية بشكل موحد في كل بلد من البلدان .[١] »

١ مجلة « افريقيا وآسيا » ، الفصل الاول من السنة ١٩٤٨ .

Revue *l'Afrique et l'Asie*, 1948, 1er trimestre.

أترانا نتجه بخطى واسعة نحو تحقيق العالم الواحد؟ هذا ما يخيل الينا، ولكن بوادر التطور الحديث في آسيا وافريقيا تواجهنا بوقائع متنافرة تجعل الاتجاه المعاكس هو الاتجاه الغالب. فخلف ستار المؤثرات العصرية يستمر التطور التاريخي وتوضع تصاميم لحركات بعضها عنيف.

لقد انجرّت الشعوب الاسلامية، كغيرها من الشعوب، الى هذه الحلقة الجهنمية، وعبثاً حاولت من ثم الخروج منها. فحتى سنة ١٩٢٣ كان العالم الاسلامي يشخص بابصاره الى «حبر اعظم» السلطان — الخليفة الذي كان يقوم لدى المؤمنين بدور الناصح والمرشد، بما له من سلطة عليا يعترف له بها الجميع على ما بينهم من عوامل الشقاق والتفرقة. وقد اوجدت الثورة التركية، بالغائها الخلافة، للعالم الاسلامي، مقدرات جديدة، وعجلت بظهور قومية خاصة في كل بقعة من بقاع الاسلام. وفي الوقت نفسه اخذت تظهر، شيئاً فشيئاً، تيارات مضادة للعروبة، هذه القاعدة الاساسية للاسلام القديم، حتى في المسائل الدينية نفسها. وهكذا يبدو على الاسلام المعاصر انه، بدلاً من ان يوحّد كلمته، ينزع الى تنشئة اسلام متوسطي عربي وآخر اسيوي غير عربي.

بيد ان انتشار الاسلام قد اوجد «وسطاً» خاصاً له مثالية واضحة المعالم قمينة بايجاد صلة وثيقة بين مسلمي الغرب ومسلمي الشرق، ولكنها صلة يمكن ان تتراخى تبعاً لنمو القوميات المحلية.

وحرصاً منا على اعطاء فكرة صحيحة عن تطور الاسلام في عصرنا، سنحاول الاستشهاد بالوقائع الواضحة، متحاشين ما امكننا الاعتبارات التاريخية التي لا نهاية لها، مع العلم ان لا مفر لنا من

الرجوع اليها في بعض الحالات . وسنكتفي بالاشارة الى التيارات الكبرى التي فرضت الدين الاسلامي على العديد من الشعوب (لان لهذه التيارات تأثيرها المباشر في الحركات الحالية) كالفتح العربي والتوسع التركي - المغولي اللذين عملا تحت شعار المعتقد الواحد . وقد ترتب على المظاهر الخارجية لهذا المعتقد نشوء الاسلام المتوسطي والاسلام الاسيوي . وها هما يتواجهان الآن وقد يؤدي هذا الحدث اما الى وحدة الشعوب التي اعتنقت الاسلام او الى انقسامها على نفسها . ويلوح ان هذه النتيجة او تلك ستظهر اول ما تظهر في الشرق الاوسط ، الواقع بين اوروبا - اسيا ، واوروبا - افريقيا .

وان دراسة التطور الاسلامي على ضوء هذا الواقع قد يتيح لنا تحديد وضع الشعوب التي اعتنقت الاسلام بالنسبة الى عالمنا المعاصر .

في القرن الفائت بسطت اوروبا والحضارة الغربية على آسيا وافريقيا سيطرة ثقافية وسياسية واقتصادية تحاول الحركات التي تهز العالم في ايامنا ان تزيل معالمها من الوجود . ولقد استيقظت آسيا من قبل ، وها هي افريقيا تحذو حذوها . ففي آب ١٩٥٠ تقدم السادة ماكي ، مندوب حزب العمال البريطاني ، وسانغور ممثل السنغال في المجلس الوطني الفرنسي ، واوسيان ديوب صول ممثل السنغال في مجلس الجمهورية - تقدموا من المجلس الاوروبي المنعقد في استراسبورغ بقرار جاء فيه ما نصه الحرفي : « ان مسائل البلاد الافريقية - وهي جد منوعة ومتداخلة - لا يمكن ان تحل حلاً نهائياً ما لم تنشأ الولايات المتحدة الافريقية . »

ترى ، ماذا يكون مصير الاتحاد الفرنسي اذا اقترنت قرارات من هذا النوع بالموافقة ؟ مهما يكن من امر ، فالثابت ان سكان

الامبراطوريات الاستعمارية يطمحون الى الاستقلال وان يكونوا بعد مضطرين للاستعانة بالتكنيك الغربي وما يتبعه من وسائل مالية ليتسنى لهم ان يتطوروا وينموا مادياً . ولكن هذا التكنيك يأخذ مداه اليوم في كل مكان من الولايات المتحدة وروسيا ، فهل يقتسم هذان العملاقان العالم ، ام ينتهي بهما الامر الى الاقتتال في سبيل السيطرة العالمية ؟

انها لعلامة استفهام خطرة ترتسم في وقت لم تعرف اوروبا او لم تستطع او لم تشأ ان تتخذ التدابير اللازمة للتعرف الى المطامح الحقيقية لشعوب ما وراء البحار والعمل على تحقيقها في نطاق الممكن والوقت المناسب ، حيث يبدو نشاطهـــا الخلاق آخذاً بالتضاؤل ، وحيث تبدو الحضارة الغربية هرمة حيال المثالية الاميركية والصوفية الروسية الفتيتين .

« ولكن الثقافة ليست ، لحسن الحظ ، شيئاً ثابتاً . ليست الثقافة شيئاً من مخلفات الماضي يجب حفظه في المتاحف ، انها حقيقة بل واقع حي يجب خلقه من جديد وباستمرار تبعاً لاستمرار الفكر في نشاطه . والامثولة التي اخذناهـــا عن اوروبيي الامس ليست الحفاظ على الثقافة كما اوجدوها هم ، انما هي ان نظل متمسكين بمبادئهم ، على ان نطبقها على احوالنا الخاصة[١] . »

تنطبق هذه الافكار على الشعوب الاسلامية التي توجه تنشئتها التقليدية تطورها العصري وتساهم في الحفاظ على الاستقلال الحقيقي وفي مقاومة الاستعباد اياً كان مصدره . فالاسلام العربي يمكن ان

١ دانيال روبس ، في معرض الكلام على انشاء « جمعية الثقافة الاوروبية » ، في شهر آب ١٩٥٠ .

يشعر بالخطر يتهدده من ناحية الاسلام الاسيوي ، وان يكن المسلمون يميلون الى الاعتقاد ان كل شيء تمكن تسويته مع الايام في اطار الاسلام ولخير الاسلام . يضاف الى هذا ان الاسلام العربي يجد في الغرب الملاكات التكنيكية التي يفتقر اليها دون ان يترتب على استعانته بها اي مساس بالدين . وقد تطورت الاقطار الاسلامية حتى اليوم في نطاق التنشئة الاسلامية المنسجمة مع الحضارة الغربية . ولا ريب في ان التفهم المتبادل بين الغرب والاسلام في الظروف الحالية يمكن ان يسفر عن نتائج خصبة .

في سبيل هذه الغاية وضع هذا الكتاب . واذا وجد مسلمون في عداد من يتصفحونه ، فاننا نرجو الا يجدوا في شهادتنا ومقترحاتنا مساساً بهم او ما يثير دهشتهم . واننا لنتوجه الى المختصين في الشؤون الاسلامية آملين ان يغضوا الطرف عن هذه المحاولة يقوم بها قائدان عسكريان سابقان لا مطمح لهما الا لاستمرار في الخدمة بالمساهمة في ايجاد اسس لتفاهم منسجم ونهائي بين بلادهما وابنائها في الاقطار القاصية بعد ان عرفا هؤلاء الابناء وقدراهم واحباهم .

تطور نفسية الاسلام في الماضي

لفهم وضع الحركة الاسلامية الحالية في العالم ، لا بد لنا من الاحاطة بنفسية الاسلام خلال تطوره التاريخي . فمن الخطأ ، اذاً ، اغفال ربط بعض الوقائع المحلية بنمو الاسلام وتعاظم شأنه ، لان هذا الاغفال يجرد الوقائع من قيمتها الحقيقية .

لنعطِ ، اذاً ، عن الاسلام ونموه وتطوره ، لمحة عامة .

ظهر الدين الاسلامي في البلاد العربية في اوائل القرن السابع الميلادي . وبفضل النهضة التي اوجدهـــا النبي محمد اندفع العرب يفتتحون الامصار . ودانت للاسلام سوريا حيث وجد بدو الصحراء ان الادارة البيزنطية قائمة على ملكية الارض ، فاقتبسوها لمصلحة الدين الجديد في سعيهم الى انشاء امبراطورية . وما لبثوا ان قوّضوا دعائم بيزنطة ، واخضعوا الشرق الادنى ومصر وافريقيا الشمالية لسيادة العنصر العربي ، واضحت مكة والمدينة مركزين دينيين ، بينا اضحت دمشق فبغداد واخيراً القاهرة العواصم السياسية للدولة .

وهكذا ـ انبثق من البذرة التي وضعها محمد في ارض شبه الجزيرة العربية شجرة قوية ذات فروع ، متينة بعض الشيء ، ومستطيلة الى حد ، تمتد اغصانها هنا حتى الاندوس ، وهناك حتى المحيط الاطلسي وسهول الوادي الكبير ، الا ان بعض الفروع قد انفصل ليحيا بعض الوقت حياة مستقلة .

وعلى الجذع نفسه نبت ابو (مطعوم) وما لبث ان حمل الى الشجرة حياة جديدة . ذلك انه في الوقت الذي كانت الخلافة العربية خذة بالانحطاط ، كان الاتراك المغول الذين حملوا سلاحهم وانطلقوا من تركستان وعلى رأسهم جنكيز خان ليحققوا فتوحات عظيمة في الدانوب والمحيط الهادي – كان هؤلاء الاتراك المغول بمثابة مركبة للاسلام ، نشروا الدين الجديد ، المنبثق من البلاد العربية ، في آسيا الوسطى، وحتى في الشرق الاقصى .

واليوم يبلغ عدد المسلمين في العالم نحواً من ثلاثمئة مليون ، منهم عشرون مليوناً في الاتحاد الفرنسي [1].

« وهذه المجموعة الضخمة من المسلمين تؤلف الامة الاسلامية على الرغم من عوامل الانقسام السطحي التي تجعل منها ، في الظاهر ، مجموعة امم (من هذه العوامل التنافس بين القوميات وتضارب المصالح) . ذلك بان الدين يشد اجزاء المجموعة بعضها الى بعض بوشائج قوية ، ويصهرها في بوتقة واحدة . فهي ، على تعدد اعراقها وتضارب نزعاتها وتباين اهدافها ، تخضع لمثالية واحدة وتستوحي مفاهيم فلسفية مستمدة من العقيدة الدينية الواحدة ، واذ تحزم امرها على شيء فبدافع من الايمان ، وان هي تباعدت بتأثير العوامل السياسية والاقتصادية والتعصب القومي ، فالشعور بالعداء نحو الاجنبي لا يلبث أن يعيد اليها اللحمة .

« وليس الاسلام مذهباً دينياً فحسب (مذهب لا محل فيه

١ الاتحاد الفرنسي تعبير اطلقه الفرنسيون ، بعد الحرب العالمية الثانية ، على فرنسا وممتلكاتها ما وراء البحار . — المعرب .

للمشككين والمرتدين) بل هو وطن . ولئن تكن القومية الدينية التي يقول بها بعض مفكري الاسلام لم تشكل حتى اليوم خطراً له شأنه ، فمرد تقصيرها في هذا المضمار الى ما آلت اليه حالة الشعوب الاسلامية من جراء صلابة العقيدة وسيطرتها المطلقة على العقول . فقد تضاءل شأن هذه الشعوب بعد ان اصيبت بالعقم الفكري ، وباتت عاجزة عن النضال ضد القوى المادية التي يضعها العلم والتقدم في متناول الحضارة الغربية[١] . »

هذا الحكم القاسي يمكن ان يسري على بعض الجماعات المنطوية على نفسها ، ولكن هذا البعض ليس كل المسلمين فلا يصح رميهم ، اطلاقاً ، بالجمود والتحجر ، كما لا يصح اتخاذ مظاهر البؤس في بعض المناطق الاوروبية مقياساً للحكم على نتائج الحضارة الغربية . وسنحاول التدليل على ان الحركة الاسلامية قابلة للتطور ، وان الشعوب الاسلامية عرفت في تاريخها اكثر من تحوّل ، مما يجيز للباحث ان يفترض فيها القدرة على الاستمرار في التطور .

يقول « غولدزيهر » في كتابه « الاسلام عقيدة وشريعة » : « ان الاسلام هو الخضوع ، خضوع المؤمنين لله . وهذا التعريف الذي يحدد علاقة المؤمن بالخالق هو اجمال للعقيدة ، مظاهرها ومبادئها واشكالها وطقوسها . فالمسلم هو من سلّم امره لله ذي القدرة غير المحدودة ، متنازلاً عن ارادته الذاتية .

« سأل وثني مصعب بن عمر : ما السبيل الى دخول الدين الجديد ؟

١ اندره سرفيه في « الاسلام ونفسية المسلم » .

André Servier, *l'Islam et la Psychologie du Musulman*, 1923.

فاجاب مصعب : يجب ان توضأ بالماء وان تشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله[١] . »

لم يكن الاسلام ، في اول عهده ، بحاجة الى مساجد ورجال دين . كان الشرع هو القرآن ، اي مجموعة الآيات التي انزلت على النبي محمد . وقد كمّل الكتاب المنزل طائفةٌ من الاحاديث النبوية لا ينكر اثرها في ما حققه الاسلام من توسع وانتشار . وهكذا سجلت الحركة الاسلامية تطورها الاول .

وفي عهد الخلفاء الأوَّل توصلت الجماعة الاسلامية الى ان تكون امبراطورية عالمية بفضل متانة التنظيم الداخلي واتساع نطاق الفتوحات ، بعد ان كانت جماعة دينية منتشرة حول مكة ومؤسسة سياسية بدائية . وقد عرضت للاسلام في الوطن الام وفي الامصار التي اخضعها حالاتٌ جديدة لم يألفها ، فاعتمد نظام ملكية الارض عوضاً عن نظام القبائل المتنقلة ، ووضع للحكم قواعد خاصة .

ولئن يكن النبي المصلح الاول في دنيا العرب فمؤسس الدولة العربية الحقيقي هو الخليفة عمر الذي جعل منها ملكية عسكرية . وقد وقع العرب في سوريا على الادارة البيزنطية المنظمة فتبنوها ، وفي بلاد فارس ومصر وافريقيا اخذوا بعين الاعتبار العـادات والتقاليد المستمدة من اقدم الحضارات ووفقوا بين الحقوق الموروثة والحقوق المكتسبة حديثاً .

ان السبل التي خطها القرآن لمواجهة هذه الحالات لم تكن كافية .

١ ديبون وكوبولاني في « المنظمات الدينية الاسلامية » .

Deppont et Coppolani, *les Confréries Religieuses Musulmanes.*

فالاحكام الشرعية التي تضمنها لا تفي بالحاجات التي انبثقت دفعة واحدة من الفتوحات وملابساتها . ولا شك في ان متولي شؤون الدولة كانوا من خيار المسلمين ، الا ان هذا لم يمنعهم من الاهتمام بتوفير معالم النمو لقوة الدولة السياسية بحيث تتمكن من الحفاظ على الامصار التي استولت عليها وتخضع الاقوام لسيطرة العنصر العربي ، قبل الاهتمام باقامة الدولة الجديدة على قواعد مستوحاة من الشرع ومنطبقة على تعاليم القرآن . وفي الوقت نفسه قام بين المسلمين من يسعى لتوجيه الدولة وجهة دينية منسجمة مع الخطوط التي رسمها النبي . وقد استند هذا الفريق الى السُنّة والعرف والحديث الشريف . وهكذا صار للاسلام شرع مقدس وشرع وضعي يستند الى احاديث نبوية وتقاليد مكملة للقرآن .

ظل القرآن فوق الجدل عندما تعددت الاجتهادات وتضاربت ، وذهب الفقهاء في تفسير الاحاديث مذاهب مختلفة . وقد ادى سقوط خلافة الامويين وقيام خلافة العباسيين الى حصول تطور اساسي في نظام الحكم ، اذ حل النظام الديني محل النظام السياسي الذي انشأه الامويون ، واتخذ بنو العباس من كونهم متحدرين من صلب النبي مرتكزاً لحقهم في السيادة ، واقاموا على انقاض نظام الحكم السابق نظاماً منطبقاً على السنّة : نظام الدولة الدينية ، واقاموا للدولة قواعد تتمشى عليها مستوحاة من الشرع الديني (الشرع الشريف) والاجتهادات المنبثقة منه.

وهكذا نشأت في الاسلام فكرة الدولة الدينيـــة ونمت ، وتوسع الحكام الجدد والفقهاء في تفسير الاسلام فقالوا انه الخضوع لله وللشرع ولاجتهادات اساطين الفقه . وقد استند بعض الباحثين الى هذا التحوّل فيما زعمه من ان الاسلام غير قابل للتطور . ولو

ان هذا البعض رافق الحركة الاسلامية منذ ظهورها لما تسرّع في الحكم عليها بالجمود ولما وجد، من ثم، في قيام الدولة الدينية وانتصاب عرش القضاة (الفقهاء) في ظل خلافة العباسيين، دليلاً على التأخر ومظهراً من مظاهر التعصب. ففي ظل الحكم التيوقراطي هذا اتسع صدر النظام لقيام اربعة مذاهب فقهية اعتبرت كلها منطبقة على الشرع وهي: الشافعية، والمالكية، والحنفية، والحنبلية.

ولكن لما كان العرف غير ثابت، نظرياً، فقد اخذ الفقهاء بمبدء الاجماع المرتكز على قول النبي: «لا تجمع كلمة المسلمين على خطأ». وعلى هذا المبدإ الاساسي تقوم الارثوذكسية الاسلامية، وعلى ضوئه يمكننا تتبع تطور الاسلام التاريخي سياسياً وعقائدياً وقانونياً. فما يُجمع المسلمون على اعتباره صحيحاً وعادلاً هو صحيح وعادل. وانه لمن قصر النظر اسقاط هذا المبدإ من الحساب عند التصدي لحل المسائل الاسلامية.

وقد اتاح مبدأ الاجماع هذا للحركة الاسلامية ان تتطور بحرية متحررة من تحكم الحرف. بيد ان الاسلام بقي واحداً في جوهره: لا اله إلا الله ومحمد رسول الله. وبالرغم من نشوء الحركة الشيعية وحركة الخوارج بقي الاسلام واحداً، ولكن المسلمين انقسموا شيعاً واحزاباً. وقام جدل في العهد العباسي حول جواز نقل الكتاب الى الفارسية وغيرها من اللغات، مع العلم انه انزل على النبي بالعربية. وكان الفقهاء في الكوفة والبصرة قد قالوا بعدم جواز قراءة الفاتحة بغير العربية، فجاء ابو حنيفة وتلاميذه وقالوا بجواز قراءتها بالفارسية، مما اتاح لمسلمي بلادِ فارس ترجمة القرآن، مسجلين بذلك خطوة لا بأس بها نحو نشر الدين الجديد في آسيا الوسطى

والشرق الاسيوي .

اشرنا الى هذه الحوادث للتدليل على ان الاسلام بقي قابلاً للتطور حتى في ظل الدولة الدينية . وتابع تطوره ايام الفتح التركي – المغولي . الا ان الدولة ، في عهد المغول ، طغت على الدين ، واقتبس الاتراك العثمانيون عن المغول مفهوم الدولة العلمانية – الدينية ، فنادوا باول سلطان انتزع الخلافة من العباسيين سلطاناً وخليفة ...

وبقيام الدولة التيوقراطية – العلمانية سجل الاسلام تطوراً آخر ، ولكن على حساب النفوذ والسيطرة العربيين . ولا بد من الاعتراف بان ثورة الحسين بن علي (١٩١٧) لم تكن ثورة رجعية ، بل كانت انتفاضة العرب في وجه الاتراك وان يكن بعث الخلافة بمفهومها الاصيل احد اهدافها .

اما الحركة الوهابية التي ظهرت في القرن الثامن عشر فقد قامت لمحاربة البدع في الاسلام وللحفاظ على جوهره ، ولكنها انغمست بالسياسة واستطاعت في القرن العشرين (١٩٢٥) اخراج الهاشميين من مكة .

وجاء مصطفى كمال (اتاتورك) ففصل الدين عن الدولة في تركيا الحديثة ، وجعل من الخليفة المرجع الديني الاعلى للمسلمين بعد ان جرّده من السلطة الزمنية ، ثم عاد فالغى الخلافة واعلن تركيا جمهورية علمانية ، مما قضى على وحدة الاسلام سياسياً ودينياً .

يتضح مما اسلفنا ان الحركة الاسلامية لم توصد بابها في وجه المؤسسات الحديثة المنبثقة من الحضارة الغربية ، وان الجمود لم يكن قط الطابع المميز لهذه الحركة ، حتى في عهود الرجعة . اما معارضة المستمسكين بالحرف ، الناقمين على كل جديد ، فقد وضع حداً لها علما

وفقهاء استطاعوا التوفيق بين العلم والدين ، ووجـــدوا في القرآن والحديث مستندات تجعل التطور ميزة من ميزات الاسلام .

ويتضح كذلك ان العالم الاسلامي في ايامنا لا يقل حرصاً على توازنه من اسلام العصور الخوالي : انه يحاول الحفاظ على ايمانه دون ان يقعده الايمان عن مسايرة ركب الحضارة . بيد ان مدى تطور الاسلام ليس واحداً في كل مكان . ففي تركيا تبنى اتاتورك القانون المدني السويسري وقانون التجارة الالماني وقانون الجزاء الايطالي . وفي شبه الجزيرة العربية لا محل لغير الشرع المستمد من الكتاب الكريم والحديث الشريف . اما مصر فقد وجدت حلاً وسطاً فأبقت حكم الشرع سائداً في قضايا الاحوال الشخصية ، واقتبست من الغرب احكام قانونها الجزائي .

لقد فقد الاسلام وحدته يوم زالت الخلافة ومشيخة الاسلام من الوجود . اما المحاولات التي بذلت لبعث الخــلافة فقد اصطدمت بالخلافات السياسية ، وبالتنافس القائم بين العرب والطورانيين . ولئن يكن هذا لا يعني ، بحال من الاحوال ، ان الدين فقد اهميته كرابطة تشد المسلمين بعضهم الى بعض ، فمما لا شك فيه ان هـذه الرابطة تقوى وتشتد كلما واجهت الشعوب الاسلامية حركة معادية للاسلام نفسه ، ولكنها تضعف وتتراخى على الصعيـد السياسي حيث تبرز الخصائص العنصرية وتتضارب المصالح والاتجاهات .

نفسية المسلم المعاصر

قلنا ان الاسلام معناه الخضوع للمشيئة الالهية (اسلم امره لله). والاسلام يؤدي معنى آخر هو « الامة الاسلامية ». ففي الشرق يخلطون بين الدين والوطن. وقد لقي المسيحيون والمسلمون في الحوض الشرقي للبحر المتوسط صعوبة بل مشقة كبيرة في هضم فكرة فصل الدين عن الدولة. وقبل ثورة تشرين كان قيصر روسيا رئيساً للكنيسة الارثوذكسية الروسية. اما الشعوب التي انفصلت عن جسم الامبراطورية المقدسة، كالشعب البلغاري مثلا، فقد حرصت على اختيار الرئيس الديني الى جانب اختيارها بيتاً مالكاً جديداً. وفي الامبراطورية العثمانية كان الناس، اذا سئلوا الى اي الامم ينتمون، لا يجيبون: « نحن اتراك او سوريون او لبنانيون »، بل يكون جوابهم: « نحن مسلمون او روم ارثوذكس او موارنة الخ... »

هذا المفهوم الديني للامة قد ترك طابعه في نفسية الشرقيين. وسنرى في فصول لاحقة ان ازالة هذا الطابع صادفت عقبات ذات بال، وبصورة خاصة في الاقطار الاسلامية المشبعة بفكرة الدولة الدينية. وقد نشأت دول جديدة في الشرق الادنى على اساس قومي، ولكن الدولة الدينية لا تحرم نصراء حتى في اوساط المثقفين.

•

في الاسلام قوة اخرى شاء بعضهم ان يجد فيها علة جموده،

عنينا الخضوع المطلق لمشيئة الله . يقول « غوايو » في كتابه « لا دين الغد »: ان كل دين يحمل في ذاته عنصر انحلاله ، وهو العنصر الذي يكون قد ساهم باوفر نصيب في ظهور الدين وانتشاره : استقلال الفرد في الاختيار . فاذا سلمنا بمبدإ الخضوع المطلق لمشيئة الله يكون الاعتقاد بالمقدر (المكتوب) من العوامل التي تقعد بالمسلمين عن العمل والسعي وبذل اي مجهود ، ولا يكون في الاسلام ، بالتالي ، شيء اسمه حرية الاختيار .

ولكن مفكري الاسلام ينكرون وجود الحتمية في دينهم، مستشهدين باحاديث النبي وبالقرآن نفسه. وفي هذا يقول الشيخ محمد عبده: « ان في الاسلام لقضاء على الحتمية ، ففي ست واربعين آية كريمة تسفيه صريح للمقدر ، ومع هذا فالاعتقاد بالحتمية موجود في الدين الاسلامي ، وهذا الواقع لا يحتاج الى تفسير . ولا يجادل عاقل في ان الانسان حر في تصرفاته ، ولكن يحد من هذه الحرية شرائع شاءت القدرة الالهية ان تتفق وطبيعة الانسان وتتلاءم مع حاجاته وتوجه مواهبه وتلجم غرائزه . بهذا المعنى ، وهذا المعنى فقط ، يفهم المسلمون الحتمية او المقدر . »

يفهم من هذا ان الاعتقاد بالمقدر لا ينفي كون الانسان مخيراً ، ولكن حرية الاختيار يحد منها واجب الخضوع لاحكام الدين . وهذا الواجب لا يتهرب منه مسلم واحد ، لان لا وجود للملحدين في صفوف المسلمين ، ولان كل واحد منهم يحفظ القرآن ويلزم الحدود التي رسمها . ولئن يكن كل مسلم يعتقد ان ما يصيبه من خير او شر مكتوب له في لوح القدر ، فهذا الاعتقاد لا يقعد به عن العمل . وعلى هذا يمكن القول ان عنصر الانحلال الذي يتحدث

عنه « غوابو » ليس هو في الاسلام « استقلال الفرد في الاختيار » ، فالمسلم يمكنه ان يتطور ، يرشده الدين ويحميه ويشده دائماً الى دائرته ، ولكنه لا يعمل بجربة ما لم تتوافر له الادلة على ان عمله متفق واحكام الشرع .

والنشاط الاسلامي هو ، بوجه عام ، خاضع لمركب التفوق . فالمسلم ينكر على غير المسلم ، بل يحتقر احياناً ، ما يفعله هذا من اجله . فقد كتب الشيخ عبد الحق احد اركان حزب « الاتحاد والترقي » بصدد الاصلاح السياسي في الامبراطورية العثمانية مخاطباً الاوروبيين ، قال :

« ... اجل ، ان الدين الاسلامي يناصب دنيا التقدم ، دنياكم ، عداء سافراً . فاعلموا ، ايها المراقبون الاوروبيون ، ان المسيحي ، اياً كان مركزه ، هو في نظرنا ، وبمجرد كونه مسيحياً ، اعمى البصيرة ، مجرد من كل كرامة انسانية . الا ان شعورنا بالكراهية نحوكم لم يمنعنا من درس مؤسساتكم السياسية ونظامكم العسكري . ان تركيا الفتاة وجمعياتنا وطوائفنا ، على تنوعها ، تحدوها فكرة واحدة الى السير نحو هدف اسمى ، ولكن ما هو هذا الهدف ؟ هل هو الحضارة المسيحية ؟ ابداً . فالاسلام هو اسرة دولية كبرى ، والمؤمنون اخوة تجمعهم وحدة الشعور ووحدة الايمان . ويعود الى الخليفة توثيق الصلات التي تشد المؤمن الى المؤمن ، وجمع المسلمين كافة تحت راية الايمان [١] . »

---

١ نشرت هذا التصريح في آب ١٩١٢ مجلة *El Macherouliette* (?) التي كان يصدرها شريف باشا في باريس .

ويقول الكاتب التونسي بشير صفار في مؤلف وضعه عن تونس : « تقطن افريقيا الشمالية مجموعة شعوب تباهي بانتسابها الى عنصر كريم هو العنصر العربي ، وتعتنق ديناً موحداً هو الدين الاسلامي . هذا الدين وذاك العنصر فتحا واستعمرا امبراطورية ابن منها الامبراطورية الرومانية على ضخامتها واتساع رقعتها . وقد سجل الافريقيون الشماليون ، وحدهم ، من الامجاد ، احتلالَ جنوب فرنسا ستين عاماً ، واسبانيا ثمانية قرون ، وصقلّية ثلاثة قرون ... اقول هذا لاذكر الذين نسوا او تناسوا مَنْ نحن اننا ننتسب الى دين وعنصر وحضارة تضاهي ، بالامجاد التاريخية وبالقدرة على الابداع ، مطلق اي دين واي عنصر واية حضارة . »

مثل هذا التصريح وذاك هو ما حمل اندره سرفيه على القول : « ان الشرع الديني في العالم الاسلامي قد اعطى المسلمين ، على اختلاف الدار وتعدد العناصر ، وحدة التفكير والشعور والادراك والرأي . فالطابع المميز للعربي ، والمسلم من ثم ، هو ايمانه الذي لا يتزعزع بتفوقه . فالحقيقة المطلقة ملك يمينه ، ولا خلاص خارج الاسلام ، مما يفضي الى انقسام العالم الى مؤمنين وكفار (دار الاسلام ودار الحرب[١]) . »

من هذه البسيكولوجية القطعية الى حدٍ ما ، انبثقت حركة الوحدة العربية وحركة الوحدة الاسلامية فضلًا عن حركة الوحدة الطورانية . وقد حاولت هذه الحركات جميعاً استغلال ايمان المسلمين

١ اندره سرفيه في « الاسلام وبسيكولوجية المسلم » ١٩٢٣ .
André Servier, *l'Islam et la Psychologie du Musulman*, 1923.
المعرب : لم يتفرد الاسلام بهذا ، فبعض الكنائس المسيحية يقول ان لا خلاص خارج الكنيسة .

بتفوقهم . ولئن بدت لنا النفسية الاسلامية المعاصرة اقل وضوحاً عند احتكاكها بمسائل الساعة ، فهي ، في الواقع ، مطبوعة بالطابع العميق نفسه . يدلنا على ذلك ايمان مسلمي اليوم باهمية الاسلام ، وشعورهم بتفوق دينهم ، وبتفوق العنصر العربي الذي نشر الاسلام في العالم ، واقتناعهم بانهم قادرون على العمل ، لا باختيارهم المطلق ، بل في نطاق الحدود التي يرسمها الدين ومصلحة الاسلام . ومن هنا كان تحفز العالم الاسلامي — برغم انفتاحه واستعداده لتفهم حاجات العصر — للانفجار في كل مرة يحصل لديه اقتناع بان ثمة مساساً بالدين . وحتى العالم الشيعي، الذي يبدو للوهلة الاولى اوسع افقاً واشد تسامحاً ، هو اكثر تشدداً من المستمسكين بالحرف في التقيد باحكام الشرع ، مع العلم ان شخصية علي كانت ذات طابع صوفي صريح . وشاهدنا على ذلك المظاهر التي ترافق الاحتفال السنوي بذكرى استشهاد الامام .

يحاول الاسلام المعاصر ، بطرق غامضة ، تحقيق الوحدة التي فقدها . « يمكن الخلافة بل عليها ان تستعيد مركزها الروحي . فالجمعيات الدينية ، التي كانت بالامس معاهد لاهوتية تقصر اهتمامها على المناظرات الفلسفية ومناقشة العقائد المتضاربة والمسائل المجردة ، قد وجدت نفسها مسوقة الى جمع الانصار ومسايرة الرأي العام ومجاراة نزعاته ، مما اضطرها الى ان تستحيل جمعيات ذات اتجاهات سياسية[1] . »

١ جولي : « الجمعيات الدينية والمرابطون في الجزائر »

Joly, *Les Confréries Religienses et Maraboutiques en Algérie.*

على هذا الصعيد السياسي نشهد في ايامنا يقظة الشعوب العربية متجلية بشكل جديد ، لانه لم يبق هناك خلافة ولا مشيخة للاسلام . وليقظة العرب تجاوب في العالم الاسلامي طراً . اما الشعور الذي اوجد في الماضي حركة الوحدة الاسلامية وحركة الوحدة الطورانية ، فانه يقود اليوم الى التحسس بالقومية . ذلك بان الشعوب الاسلامية ، بعد زوال السلطة المركزية ، دينياً وسياسياً ، انتقلت من الاممية الاسلامية الى مفهوم ذي طابع خاص يتيح لها تحقيق مطامحها مع الحفاظ على الرابطة الروحية التي تشد المسلم الى اخيه المسلم . وهكذا حلت فكرة الوطن محل فكرة الامة الاسلامية اولاً ، وفكرة الامة العربية ثانياً .

قد يكون في جملة العوامل التي ادت الى هذا التطور اطلاع المسلمين المتعلمين على المفاهيم الاوروبية . وقد يكون في جملتها كذلك اصطدام الاسلام بالحضارات التي صادفها في طريقه . ففي آسيا الصغرى والوسطى احتك الاسلام بالحضارتين الفارسية والهندية . وفي الشرق الادنى احتك بالحضارة المصرية الرفيعة . فاذا لم يكن بالامكان اثبات وجود حضارة اسلامية ففي وسع الباحث ان يفترض ان الاسلام ، بالاضافة الى الدين الجديد والتنشئة الروحية اللذين حملها ، قد اوجد بيئة صالحة لهضم المعارف البشرية المكتسبة هنا وهناك وترجمتها ، وان العرب نقلوا هذا النتاج الفكري من الشرق الى الغرب . يضاف الى هذا ان العرب ، خلال توسعهم ، عملوا على انماء سجاياهم بالاقتباس من الشعوب المغلوبة على امرها ، فكانت الحضارة العربية التي نجد ابدع آثارها في دمشق وبغداد والقاهرة وفي الاندلس ، والتي كانت في القرون الوسطى بمثابة مركبة للفكر

القديم وللفلسفة الاغريقية . وقد ازدهرت في اشبيلية وغرناطة المعاهد العلمية ، ومنها انتقلت العلوم الى مونبليه ، ومن هذه الى باريس واوكسفورد ولوفان . ولا ريب في ان انتقال الفكر القديم ، بفضل العرب ، قد ساهم مساهمة كبيرة في انماء الفكر الحديث . ولم ينس المسلمون الرسالة الانسانية التي ادوا . لهذا نراهم معتدين بما ادوا ، مقتنعين بانهم مدعوون لقيادة موكب الحضارة ، وليسوا في وضع يجعلهم خاضعين لحضارة الغرب .

قبل الاسلام ، ما عبر العرب عن احاسيسهم قط بغير الامثال والحكم المفرغة بقالب شعري ، وبالملاحم والحكايات ذات الطابع الفروسي (غرام عنترة بعبله) . وكان الشعر يحتل المقام الاول من اهتمامهم . ومن احتكاك العرب الفاتحين بالشعوب المغلوبة على امرها نشأت ، كما اسلفنا ، الحضارة العربية البحتة التي اتاحت للفاتحين الاطلاع على نتاج الحضارات الغريبة . ولا ننسى ان الفنون والعلوم بقيت في الشرق مدة طويلة وهي وقف على غير العرب . ففي سوريا تابعت المعاهد المسيحية رسالتها ، وفي بلاد ما بين النهرين فتحت الاندية الفكرية القديمة في البصرة والكوفة ابوابهـا لاستقبال العرب والفرس والمسلمين والنصارى واليهود والمجوس . وفي تينك المدينتين اطلع الفاتحون على الدراسات العلمية ، اول ما اطلعوا . وما لبثت العلوم العربية في الفلسفة والطب ان اضحت جديرة بالحضارات المنقرضة . وكان للمؤثرات الفارسية واليونانية المسيحية فضلها في هذا التطور .

فبفضل الفرس عرف مسلمو سوريا حكمة الهند وطبقوا الفلسفة على دينهم ، ثم نشروا الحضارة الشرقية في الصين وبلدان الغرب التي كانت قد عرفت بواسطتهم البوصلة وتعلمت صناعة الخمور والحرير واخذت

بالثقافة اليونانية في مدارس اورفه ونصيبين وحرّان وجُندَيسابور .

وقبل ان يتعرف المسلمون المتعلمون الى الفكر اليوناني ، كان العالم الاسلامي غريباً عن المسائل العلمية البحتة . وفي العام ٧٥٠ استقدم الخليفة العلماء السوريين الى بغداد ، فما عتمت حتى اصبحت مركزاً فكرياً ينافس المدارس الاغريقية الذائعة الصيت . وبعد ترجمة المؤلفات الاغريقية في الفلسفة والطب والرياضيات ظهرت مصنفات لكتاب ومفكرين مسلمين يمت معظمهم باجداده بصلة الى مدرسة ارسطو والمدرسة الافلاطونية الجديدة .

وقد قسم العلماء العرب العلوم الى علوم عربية وعلوم قديمة أو غير عربية . وتشتمل الاولى على كل ما له صلة بالعقيدة وعلم الاخلاق واللغات والآداب والتاريخ ، وتشتمل الثانية على الفلسفة والرياضيات والطب . وكانت الفكرة الاساسية ان علم اللاهوت او الالهيات يجب ان يشكل في كل علم الاساس والهدف ، وانه ينبغي للعلماء ان يعملوا في نطاق الاسلام بحيث تؤدي دراساتهم الى فهم العقيدة وخدمتهـــا . ولا ريب في ان هذا المفهوم للعلم والعلماء لا يزال كامناً ، ولكن بشكل غير واضح ، في العقل الباطن للمسلم المعاصر ، مؤلفاً جزءاً من بسكولوجيته .

ولما كانت الالهيات والاخلاقيات جزءاً من القرآن لا يتجزأ ، فقد جاءت الآثار الادبية المتعلقة بهما من نتاج الذين تصدوا للدراسات الدينية . واهتم العرب بعلم اللغات اهتماماً خاصاً الى جانب اهتمامهم بالالهيات والاخلاقيات . ذلك بان اللغة العربية كانت اللغة الدينية والرسمية ، مما استوجب ان يكون اللاهوتيون متضلعين من اللغة ، عارفين

باصولها ، وقد عني هؤلاء بضبط قواعدها بالاستناد الى القياس .
وجدير بالذكر ان علم اللغات كان له تأثيره في عرقلة موكب التطور الفكري في العالم الاسلامي ، لان غلاة الباحثين في الالهيات اتخذوا من هذا العلم سلاحاً للحؤول دون اقحام الفلسفة الاغريقية في الجدل الديني ، وكانت حجتهم ان اللغة العربية غنية بالمترادفات التي تمنع مدرسة ارسطو استخدامها في العلم الصحيح . يضاف الى هذا ان التعمق في درس المفردات والنصوص واعتماد القياس قاعدة اساسية حملا اللاهوتيين على اتباع الاسلوب نفسه في الجدل الديني .
وادى القياس الى انزال ما يجمع عليه المسلمون منزلة القاعدة المقررة ، ووقف في الوقت نفسه في وجه كل تجدد برفضه الكلمات المولّدة . ويمكن القول ان العناية باللغة قد ساهمت الى حد كبير في استمساك الباحثين بالشكليات ، وان مبدأي الاجماع والقياس لا يزالان قائمين ، فليس من الحكمة في شيء تجاهلهما عند اخضاع الشؤون الاسلامية المعاصرة لدراسة موضوعية رصينة .

وترتب على العناية باللغة والتدقيق في اختيار المفردات وعلى الاسلوب المرن الذي اتبع في كتابتها – هذا الاسلوب الذي يساير مقتضيات الحال وشتى الاهواء – نشوء فن جديد هو فن الوشاء او النقوش الموشاة باشكال النباتات والاوراق ، لان القرآن قد حرّم الرسوم التي ترمز الى البشر .

وفي هذه الاثناء كان الخلفاء ، حرّاس الايمان الصحيح ، يتخذون اقسى التدابير ضد العلوم المسماة قديمة وضد الفلسفة الاغريقية . فقد جاء في امر (فرمان) اصدره المنصور في العام ١١٦٣ « ان الله جعل نار جهنم للذين زعموا ان الحقيقة يمكن

الاهتداء اليها بالعقل المجرد . » ولعل المقصود بهـذا الحكم القاسي جماعة الفلاسفة المسلمين الذين كانوا – كما ذكر وولف – يميلون الى تمييز دين الشعب « القائم على حرفية القرآن » من دين المتعلمين القائم على دراسة فلسفية . وقد ترتب على تدابير الخلفاء بقاء الجامعات الاسلامية الكبرى وقتاً طويلاً موصدة الابواب في وجه الدراسات غير الدينية ، بينما كان الشعر والتاريخ والجغرافية تساير تقدم العلوم المسماة عربية .

يتضح مما تقدم ان الحضارة العربية واقع تاريخي لا يمكن انكاره او تجاهله . فقد كان لهـا فضل نقل النتاج الحضاري من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق ، وكان لها فضل تلقيح اوروبا بالفكر الاغريقي الذي تلقفه العرب وهو يوشك ان يتلاشى . ولئن يكن بعض الجمود قد سيطر على هذه الحضارة في اعقاب القرون الوسطى ومن جراء تنكر المفكرين المتزمتين للعلوم غير العربية ، فقد حرّكها مجدداً احتكاكُ العالم الاسلامي بالحضارة الاوروبية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين .

ولا بد من الاعتراف بان استرجاع الاندلس الذي تم على حساب التوسع العربي لم يكن رفيقاً بالفاتحين القدامى ، وكان « ابناء الشرق » الذين احتكوا بالفرنجة وبالقوطيين الغربيين قد ادركوا ان حضارة هؤلاء الاوروبيين ليست ارفع من حضارتهم هم . فبديهي والحالة هذه ان يزيدهم هذا الاحتكاك اقتناعاً بتفوقهم كعرب ومسلمين . وقد اختارت الكنيسة الكاثوليكية هذا الوقت بالذات لانشاء نظام الفروسية . وفي اسبانيا رافق اخراج العرب منها اعمال همجية . وجاء ديوان التفتيش الاسباني يقطع الطريق على كل تفاهم بين الحضارتين

الغربية والعربية .

وكان اجتياح العثمانيين لبعض البلدان الاوروبية من العوامل التي زادت الشقة اتساعاً . وبعد القديس لويس الذي احرز لفرنسا لقب « حامية نصارى الشرق » ، استطاع فرنسوى الاول ان يقيم اولى العلاقات الودية بين الاسلام والنصرانية بعقده حلفاً مع السلطان الخليفة (١٥٣٥) . وقد نظمت المعاهدة الامتيازات الفرنسية في الامبراطورية العثمانية ولاسيا التمثيل القنصلي ، محدثة بذلك الخرق الاول في الستار الفاصل بين الشرق والغرب ، ومتيحة للعلم الاوروبي الفرصة لدخول ارض الاسلام .

وفي اواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين بدأ العالم الاسلامي يلمس تقصيره في مضمار الرقي والتقدم في عصر البخار والكهرباء والاكتشافات العلمية . وقام في المعاهد الدينية والجامعات الكبرى ، حيث كان الطلبة يتلقون العلوم المسماة عربية ، اساتذة وطلاب يدعون الى اضافة العلوم العصرية الى برامج التعليم[١] . وفي الوقت نفسه اقبل العديد من الطلبة المسلمين ، بعد انهائهم التحصيل الديني ، على دخول المدارس والجامعات الاوروبية ، فترتب على هذا الاقبال ظهور تيارين احدهما التيار الاصلاحي وهو يضم من كانت ثقافتهم محض عربية او من كانت ثقافتهم العربية اعمق من ثقافتهم الغربية ، اما التيار الآخر فيضم الذين تلقوا العلوم في المعاهد الاوروبية او الذين تشبعوا بالثقافة الغربية .

١ قام طلبة جامع الزيتونة في تونس بتظاهرة احتجاجاً على ضعف برنامج العلوم العصرية في الجامعة مما يحول دون توليهم الوظائف المرموقة في بلادهم (تموز ١٩٥٠) .

بيد ان هذا التطور لم يتحقق بيسر ، فقد طال الاخذ والرد قبل ان تفتح الجامعات الاسلامية او بعضها ابوابها للعلم الحديث . وجدير بالذكر ان الاعتراف بفائدة هذا العلم لم يجر الى الاعتراف بالحضارة الغربية التي يعتبرها المسلمون حضارة مسيحية ، ولم يترتب عليه ، بالتالي ، تخلي المؤمنين عن الاعتقاد الذي كان سائداً في عهد المنصور : العلم يمهد السبيل الى المادية والالحاد . لهذا رأيناهم ونراهم يجتهدون في التوفيق بين العلم الحديث واستمساكهم بالقواعد التي رسمها الدين ، ويرفضون كل تطور يجعل من حضارتهم صنواً للحضارة الغربية .

المسلم المعاصر يتلمس طريقه اذاً بكثير من الحذر ، اقتناعاً منه بان الحضارة الغربية ذات المرتكز المسيحي لا يمكن ان تمتزج بالحضارة العربية المشبعة بالطابع الاسلامي . ويرحب المسلمون المعاصرون بالعلم مع ما يحققه من تقدم ورقي ، ما دام لا يجر الى التشكك ولا يمس بالدين . فالاسلام صرحٌ من الملاط (الاسمنت) لا يتزعزع ولا يجوز ان يظهر فيه اثر للتشقق . وعلى هذا الاساس يمكن الثقافة العلمية المعاصرة ان تجد تربة صالحة في المحيط الاسلامي . ففي البلاد الاسلامية غير المستقلة ، يمكن الاغضاء عن وجود سلطة غير اسلامية . اما معالم الرقي التي تحملها هذه السلطة فان بقاءها رهن باجماع السكان على قبولها .

يقول « بلانيغران » في كتابه « الاسلام في العالم » انه لا يجوز الضغط على طبيعة البشر ، فالتطور يجب ان يتم من تلقائه بقانون المحاكاة ان هو صادف تربة صالحة . وقد توصل الاسلام الى فرض نوع من الثقافة الدينية دل استمرارها على انها متلائمة وعقلية الشعوب

التي ارتضتها . والملاحظ بوجه عام ان مداراة هذه العقلية هو هاجس النخبة (وهي غير النخبة الدينية) التي تدّعي التعبير عن اماني الشعوب دون ان تكون على تماس حقيقي بهذه الشعوب ومطامحها السياسية. وكثيراً ما ينتهي الامر بهذه المطامح الى التبلور بحيث تصبح نسخة طبق الاصل عن المفاهيم الغربية ، ولكن لا يلبث المجتمع الاسلامي ان يستبعدها ويتنكر لها بفضل ثقافته الدينية المتأصلة . ففي تركيا الحديثة شهدنا انتفاضة دينية عنيفة ، وفي تونس افضت الحملة الرامية الى اعطاء التونسيين الرعوية الفرنسية الى مطالبة المسلمين الذين منحوا الجنسية الجديدة باعادتهم الى جنسيتهم الاصلية ليتسنى لهم الحفاظ على الفوائد التي يعود بها عليهم الشرع الاسلامي ، واسفرت الحملة نفسها في الجزائر عن نتائج مماثلة .

يتضح من هذه الشواهد ان موافقة المسلمين موافقة اجماعية على تطور ما هي الضمانة الاساسية لنجاح هذا التطور ، وان كل اصلاح يفرض على المسلمين فرضاً لا بد له من ان ينهار عاجلاً او آجلاً .

وعلى الجملة ، ليس المسلمون واحداً حيال القضايا المعاصرة ، فثمة :

- المؤمنون المحافظون المستمسكون بتقاليد الآباء والاجداد .

- المؤمنون المتشبعون بالثقافة الغربية والذين فتح امامهم العلم آفاقاً جديدة، دون ان يفقدوا ايمانهم . وهذه الفئة من المؤمنين تطمح الى الاضطلاع بدور سياسي في اوطان تريدها مستقلة .

- الفئة الجاهلة التي يمكن ان يحرّكها التعصب ويملي عليها تصرفاتها .

تقدم معنا كيف استطاع المسلم المعاصر التوفيق بين العلم والدين ،

بتنكره للافكار التقدمية المتنافرة وتعاليم القرآن . ولكن للمسألة وجهاً آخر . فالسواد الاعظم من المسلمين يحيا حياة مادية كالتي كان يحياها اجداده في القرون الوسطى . اما الذين اخذوا باسباب الحياة العصرية بفضل احتكاكهم بالحضارة الغربية ، فان عددهم آخذ بالازدياد ، وليس من العسير تبين اي فارق بينهم وبين الغربيين من حيث درجة التحصيل والهندام والمسكن ومعاملة المرأة الخ ... وهذا الفريق من المسلمين يشق عليه ان يعدّه الغربيون غريباً عن الثقافة العلمية العصرية وعن طراز المعيشة الحديث ، فهو يبتعد شيئاً فشيئاً عن تقاليد الاجداد وعاداتهم . واننا لنلمس مثل هذا الابتعاد وهذا التطور في محيط العمال الذين يهجرون الارياف الى المدن الصناعية في اوروبا ، تجذبهم اليها الاجور المرتفعة ، فلا يلبثون ان يقطعوا كل صلة بينهم وبين محيطهم السابق . اما تعطشهم الى مثالية جديدة فانه يجعلهم عرضة للوقوع في حبائل الاحزاب المتطرفة . ومع هذا يمكن القول ان تشبعهم بروحيـة الاسلام يوفر لهم قدراً كافياً من المناعة .

ومن المفيد ان نذكر ان المسلم المعاصر لم يبق بمعزل عن التيارات الفكرية المنبعثة من الشرق ، وانه ، الى جانب تأثره بدعاوات مصدرها تارة اوروبا وطوراً اميركا ، يسعى لاستخدام هذه الدعاوات في تحقيق امانيه ... فمبادىء ويلسون الاربعة عشر (١٩١٨) ، وميثاق الامم المتحدة ، ومناقشات هذه المنظمة ، وخطب الساسة الاوروبيين والاميركيين ، والدعاوات التي يقوم بها علماء الانكلوسكسون والسوفيات ، هذه كلها قد ايقظت في المسلمين شعوراً وطنياً خاصاً هو في طريقه الى الحلول محل مفهوم الامة

الاسلامية [١].

اما والاسلام واحد، غير قابل التجزئة من حيث الجوهر بالرغم من الخلافات ذات الطابع الخصوصي بين الشعوب الاسلامية، فما عساها تكون الانفعالات الاسلامية حيال قضايا الساعة التي يتوقف على حلها كيان الديانات الاخرى الموحدة كالمسيحية والاسرائيلية ؟

هذا ما نحاول تحليله في الفصل الآتي.

١ طلبت جامعة الدول العربية الاعتراف بها كمنظمة اقليمية متفرعة من الامم المتحدة اعتماداً منها على عطف الانكلوسكسون.

الاسلام على مفترق نفسي من تاريخه

قضى منطق الاحداث على المسلمين بان يوفقوا بين استمساكهم بالدين والاخذ باسباب الرقي التي توفرها الثقافة العصرية وتقدم العلوم . وقد ادى هذا التطور الى وقوف الشعوب الاسلامية وجهاً لوجه امام المسيحية التي ساهمت باوفر نصيب في ايصال العالم الى وضعه الحاضر . فما عساه يكون مسلك الاسلام المعاصر حيال المسيحية وحيال الموسوية ، مع العلم ان المسألة اليهودية ذات علاقة مباشرة بما يعني الاسلام والمسيحية ؟

يقول « غولدزيهر » ان التقليد الاسلامي يعبر عن شعور النبي بان رسالته تشمل البشر كافة . ولا جدال في ان موقف المسلمين الفاتحين من غير المسلمين المغلوبين على امرهم كان مشبعاً بروح التسامح . « لا اكراه في الدين » يقول القرآن الكريم . بيد ان هذا التسامح ما كان ليفيد منه غير « اهل الكتاب » اي النصارى واليهود ، لانهم موحدون واصحاب ديانتين منزلتين . اما الوثنيون فقد كان عليهم ان يعتنقوا الاسلام والا هلكوا .

والنصرانية تفضُل الموسوية في نظر المسلمين . فتعاليم المهدي تقول : ان كل خطوة تخطوها البشرية في مضمار التقدم يسبقها حتماً ظهور مسيح (او نبي) يعود بالبشرية الى الصراط المستقيم . وقد ظهر المسيح بعد موسى فالنصرانية تفضل اذاً الموسوية . لهذا لا

يُقبل اسلامُ يهودي ما لم يعتنق النصرانية اولاً .

لقد جعل هذا التسامح في زمن الخلفاء العباسيين رهنا بشروط . فسمح لاهل الكتاب بممارسة طقوسهم ، ولكن وضعهم في الدولة جعل دون وضع المسلمين ، وفرضت عليهم الجزية . حدث هذا والاسلام في ابان انتشاره وتوسعه . فلما انبرت له النصرانية واقامت من بيزنطة سداً منيعاً في وجه الموجة الاسلامية الطاغية ، ثم اوقفت هذه الموجة امام فيينا ، وفي الغرب بين تور وبواتيه ، انكفأ الاسلام وانكمش مقيماً من نفسه ستاراً بين الغرب والشرق الاقصى . وقد ادت المنازعات ، من ثم ، بين النصارى والمسلمين ، الى حفر هوة حقيقية بين اتباع الديانتين ، هوة لم تنجح الجهود التي بذلت وتبذل في ردمها . بيد ان اكتشاف سبل الاتصال التجاري بالشرق الاقصى من طريق رأس الرجاء الصالح ، واكتشاف اميركا ، وحفر قناة السويس وما رافق ذلك كله من انتشار الاوروبيين وتوسع دولهم في اسيا وافريقيا — هذه العوامل مجتمعة ساعدت على نمو التجارة الاوروبية وازدهارها بقدر ما ساعدت على انتشار نتاج الفكر الاوروبي . وقد انفتح العالم الاسلامي شيئاً فشيئاً على الثقافة الغربية ، وترك شتى المؤثرات والتيارات تتصارع على عتبته ، غاضاً الطرف عن تسلل بعضها اليه . وما لبث ان تبنى العلوم الغربية التي لا تتنافى والعلوم العربية (الدينية) ، ولكنه حرص ولا يزال يحرص على الافادة من التقدم العلمي والتكنيكي دون ان يترتب على تقبله نتاج الفكر المسيحي تخليه عن حضارته الروحية والفلسفية والفكرية والفنية .

وقد عرّف محمد اسعد بك في كتابه « الله اكبر » الاسلام المعاصر ، قال : « ان الاسلام المعاصر ينفخ في ذاته روح الفتح الذي

كان الحافز الاعظم لاوائل المجاهدين في سبيل الله ليسلك سبيلين مختلفين للسيطرة على العالم . سيجدد الاسلام شبابه بفضل نشاط المناضلين من ابنائه تحت كل كوكب ، وعندئذ يفرض نفسه على حضارة الغرب البالية .

« ويقود الاسلام في طريق النصر القريب مصطفى كمال باشا وابن سعود . ولئن يكن اولهما قد تنكر للتقاليد الاسلامية معتمداً العقل وحده في بعث قوة الاسلام ، فنهجه هذا لا يضايق ابن سعود الذي يرجو بلوغ النتيجة نفسها عن طريق العود بالاسلام الى ما كان عليه في عهد الصحابة . ولا ريب في ان النهج السعودي هو القمين بالوصول بالعالم الاسلامي الى ما يصبو اليه من قوة وسؤدد . »

يمكن القول ان وقوف الاسلام المتحفز في وجه الحضارة الغربية البالية لم يبق موضع بحث في هذه الايام[١] ، ففي العام ١٩٥٢ بطلت المسألة ان تكون مسألة اخذ المسلمين باسباب الحضارة المسيحية ليستخدموا التقدم العلمي والتكنيكي في تأمين النصر للاسلام ، فقد برزت عوامل جديدة في قلب الحضارة الغربية نفسها ، وتخطت مرحلة الجدل بين المسلمين المتسائلين : أيجوز اقتباس وسائل الحضارة الغربية ام لا ؟ فما هي هذه العوامل ؟

افضت الحرب العالمية الثانية الى ظهور كتلة انكلوسكسونية وكتلة سوفياتية والى حصول انقلاب ثوري داخلي في نطاق المجتمع التكنيكي الغربي . فعلى حد قول فيرجيل جيورجيو في كتابه « الساعة الخامسة والعشرون » حققت روسيا بعد الثورة

١ المعرب : صدر الكتاب في اواخر ١٩٥٢ .

الشيوعية اخطر تقدم تكنيكي سجلته الحضارة الغربية ، فهي قد اسقطت الانسان من حسابها متخذة من الآلة والانتاج اساساً لكل شيء في الدولة . وبعد ان اخذت روسيا من الغرب نظرياته ، انبرت تحاول حمل الشرق على اعتناق نظرياتها . وها هي الولايات المتحدة واوروبا تعقد الخناصر على مكافحة هذا التيار ، بعد ان كافحت النازية والفاشستية . ذلك بان الشيوعيين والنازيين يريدون اخضاع الانسان لدكتاتورية الآلة والاحصاءات ، مضحين بالفرد على مذبح النظريات والخطط والتصاميم . اما الديموقراطيات فانها تقيم للانسان وزناً كبيراً وتحترم حريته الفردية . ولئن تكن الولايات المتحدة الاميركية تبدو لنا وشيكة الانزلاق على منحدر الاخذ بمبدإ الآلة والاحصاءات ، ففي تظاهر روسيا بالسعي الى تحرير العامل ما يذكر اميركا بوجود الانسان . اما بريطانيا العظمى وفرنسا ، البلد الزراعي ، فقد استطاعتا حتى الآن التوفيق بين الحرية الفردية وتقدم التكنيك ، ولكن المأساة ما تبرح قائمة بالنسبة اليهما .

لقد ادرك الكاثوليك في العالم المسيحي مدى الخطر الذي يتهدد البشرية . فذكرت السنة ١٩٥٠ ، السنة التي اعتبرتها روما مقدسة ، الناس بوجود قيم روحية ، فكان ذلك بمثابة اعلان الحرب على الشيوعية او الصوفية السوفياتية التي لا تعترف بوجود الكنيسة ولا تقيم للفرد اي وزن . وفي الوقت نفسه يقوم صراع سافر بين اليهود والمسلمين . ومعلوم ان يهود اوروبا فريقان : يهود اوروبا الشرقية الذين يحاولون الهجرة الى فلسطين لفرط ما يعانون من صنوف الاضطهاد ، ويهود حوض البحر المتوسط الذين يعتبرون مواطنين حيث هم ولا يطمحون الى اكثر من تقديم المساعدات

الى الحركة الصهيونية . ولا ننسى ان الصهيونية قد هوجمت وتهاجم في المؤتمرات الاسلامية ، ولاسيما مؤتمر القدس . وقد ادى قيام دولة اسرائيل ، النتيجة الزمنية للحركة الصهيونية ، الى تبلور المعارضة الاسلامية للصهيونيين في المشرق . ولكن اذا كان التنافر بين المسلمين واليهود يحول دون أتباع الديانتين على صعيد الوقوف في وجه التيار الشيوعي ، فهناك اوساط مسيحية ويهودية ترحب بتقارب يتم بين النصارى واليهود في الظروف الراهنة .

ان موقف الاسلام غير واضح وسط هذه البلبلة . وكل ما يمكن قوله في الوقت الحاضر هو ان الاسلام والمسيحية والموسوية يمكن ان تتزعزع بفعل نمو مجتمع محض تكنيكي ، ان هو لم يجرّ البشر الى الالحاد ، فانه مفضٍ الى انكار الحرية الفردية ، متحدياً الاديان السماوية والتقاليد المقدسة . ويبدو انه لا مندحة من قيام جبهة مشتركة تأخذ على عاتقها حماية القيم الروحية ، فهل يحتل الاسلام مكانه في هذه الجبهة ؟

لقد فكر فريق من الكاثوليك والاسرائيليين وبعض المسلمين في انشاء جبهة تتعاون في نطاقها الديانات المنزلة الثلاث ذات المنشأ الواحد والمثالية الواحدة . ولا ريب في ان الظروف الراهنة تجعل من قيام مثل هذا التعاون امراً مرغوباً فيه ، بل ضرورة من الضرورات .

ولا جدال في ان المفهوم الاسلامي للدين طغى عليه في معظم الاحيان الحرصُ على التزام حدود الشرع والدقة في تفسير ما جاء في الكتاب المنزل . ولا جدال كذلك في ان رجال الدين الاسلامي ، في حرصهم على التقيد باحكام السُنّة ، لم ينكروا جواز

تبدل الاحكام تبعاً لتبدل الازمان . هذا يظلم الاسلام ، من يرمي الشرع بالجمود لان احكامه الاساسية ثابتة . فقد رأينــا المسلمين يتطورون سياسياً واجتماعياً مجاراة منهم للاحوال الطارئة وظروف المكان والزمان دون ان يضطرهم هذا التطور الى الابتعاد عن السنّة ، اي ان الاسلام لم يوصد بابه في وجه التقدم والاصلاح لان الشرع عدو للتقدم والاصلاح . ولم يتنكّر المحيط الاسلامي للمؤسسات التي احدثتها الحضارة الغربية ، فقد قامت حركات منسجمة مع التطور الديني الذي عمّ البشرية جمعاء .

كان اول دعاة الاصلاح ابن تيميّة *Ibnou Taymiya* . وهو سوري توفي في السنة ١٣٢٨ ميلادية . وله مؤلفات يحمل فيها حملات قاسية على ما يدعوه « ضلال الزوايا والطرق » ، ويفند نظريات دعاة التصوف ، ويعدد اخطاء مفسري الاجماع ، ويهاجم عبادة الاصنام والمتعبدين للاولياء ، و « المتاجرين بالبركة »[١] . وقد طبّق هذا الاصلاح في الحجاز محمد بن عبد الوهاب بانشائه الحركة الوهابية ، وفي تونس طبّقه الحزب الدستوري ، ومن ثم الحزب الدستوري الجديد . اما في مراكش فقد استطاعت سلطة السلطان ، بالرغم من مقاومة البربر ، اعطاء الحركة الاصلاحية شكلاً سياسياً اكثر منه دينياً . وفي تركيا سحق الحركة مصطفى كمال باشا ، وايدها العلماء في سوريا وفلسطين ومصر (الازهر) ، وفي تونس شيوخ جامع الزيتونة ، وفي الجزائر خريجو الازهر والزيتونة .

والحركة الاصلاحية حركة محافظة رجعية من حيث وقوفها في

١ وهو ما فعله لوثيروس بعد ان شق عصــا الطاعة على الكنيسة الكاثوليكية . — المعرب .

وجه الاساليب العلمية التي طلعت بها الحضارة الغربية . انها « صليبية تهدف الى انقاذ الاسلام من براثن المسيحية[١] » .

كانت ، في البدء ، رجعة ذات طابع ديني ضد التمدن[٢] ، واسفرت في النهاية عن نتائج سياسية[٣] . وقد ادت في الجزائر الى اضعاف نفوذ مشايخ الطرق والمنظمات الدينية والعائلات العريقة . وها هي تحاول ، في سوريا ومصر والمشرق وشبه الجزيرة العربية ، تحقيق الوحدة العربية التي تضمر شعوراً عدائياً للغرب وللتمدن الغربي . وقد ظهرت في الهند وبلاد فارس حركات معاكسة ذات اتجاهات جديدة ، فنشأ في بلاد فارس ، حيث ظهرت الصوفية ، مذهب البابية *Babisme* (في مطلع القرن التاسع عشر) .

والبابية (نسبة الى الباب) تقول بظهور الامام والمهدي ، الخليفة الروحي للامام علي . وعقب ظهورَ البابية ظهورُ البهائية القائلة بوحدة الكون قائمة على الايمان والتفاهم . وتوحي البهائية أتباعها بقراءة العهدين القديم والجديد ، ولكنها تقول ان القرآن هو الكتاب المقدس الوحيد ، وفي الوقت نفسه تنتقد الحديث الشريف والسنّة . وقد انتشرت البهائية بسرعة في المحيط الهندي وافريقيا السوداء . ولها في ايامنا فروع في انكلترا واميركا . ويبشر البهائيون باتحاد

١ حسن : « كيف تهلك الجزائر الفرنسية » .

Hassan, *Comment périra l'Algérie Française.*

٢ تزعمها الشيخ جمال الدين الافغاني، ثم قادها بحزم الشيخ محمد عبده .

٣ خطب الشيخ العقبي في المؤتمر الاسلامي الذي عقد في ٧ حزيران ١٩٣٦ فقال مخاطباً المسلمين : « يوم تبتعدون عن المرابطين (يقصد الطرق والزوايا) وتنهلون من موارد العلم والمعرفة يمكنكم ان تطالبوا بالاستقلال . »

النصرانيـة والاسلام ، ولكنهم يرمون بالمروق عن الدين السنيين والشيعيين .

نمت الشيعة في البيئة الطورانية ، وفيها نمت كذلك الشيع التي حملت الى الاسلام المعاصر بذور الفكر الحر . بينا اراد الاصلاح في الشرق الادنى وافريقيا العودَ بالاسلام الى صفائه البدائي . وفي البيئة الطورانية قامت المحاولات الاولى للتوفيق بين السنة والشيعة . ولقد شغلت بلاد فارس (ايران اليوم) المقـام الاول بين مجموعة الدول الشيعية لانها ندبت نفسها للوقوف في وجه الامبراطورية العثمانية السنية . وفي العام ١٧٤٧ عمل نادر شاه على التوفيق بين المذهبين . والتأم مجلس علماء بدعوة من الشاه ووضع مشروع تسوية يقضي باضافة المذهب الشيعي الى المذاهب الاربعة التي يقول بها السنيون . بيد ان الخلاف التقليدي ذرّ قرنه مجدداً بعد وفـاة نادر شاه . وفي القرن التاسع عشر تضافرت السنة والشيعة في القوقاز في الدفاع عن الاستقلال ، وقاد الكفاح ضد الروس « شامل امام » على رأس مريديه من شراكسة وجيورجيين ، ولكن الاتحاد السني – الشيعي في القوقاز كان موقوتاً . وفي ٢٣ آب ١٩٠٦ التأم مؤتمر اسلامي في « قازان » المركز الديني للاسلام في عهد القياصرة ، وعرض ، فيما عرض ، لمسألة التعليم الديني ، فقرر اعتماد كتاب واحد للشيعيين والسنيين ، على ان يكون الاساتذة من الطائفتين .

وسُجل تقارب مماثل بين الطائفتين على الصعيـد الاجتماعي في بلاد ما بين النهرين حوالى سنة ١٩٢٠ بموافقة النجف الاشرف . بيد ان التقارب هنا وهناك بقي محلياً ، اي ضيق النطاق . ومن المشكوك فيه ان يشمل ، في وقت قريب ، العالم الاسلامي طراً .

وفي الصراع الحالي بين الكتلتين الانكلوسكسونية والسوفياتية لم تغفل كلتاهما شأن المسلمين . وسنعرض في فصل لاحق للجانب السياسي من هذه المسألة . اما في الحقل الروحي ، فواضح ان الكرملن ، بعد ان حارب في بلاده الاسلام اسوة بباقي الاديان ، عاد فادرك ان الاسلام قوة لا يستهان بها وعاملٌ يمكن اللجوء اليه في التأثير على ملايين الناس . وقد رأينا الكرملن يأذن للمسلمين بفتح ابواب الجامعتين الدينيتين في طشقند وسمرقند ، لعلمه انه من طريق هاتين المؤسستين يمكنه اسماع صوته مسلمي آسيا المتشبثين بالسنّة ، كما يمكنه اسماع صوته الشيع المنتشرة في ايران والهند من طريق المركز البهائي في اشقبند ، ولكن نشاط الدعاوة السوفياتية في هذا الحقل لا يعني ان حكومة موسكو تشجع قيام الامة الاسلامية [١].

فاذا سلمنا بان روسيا الشيوعية تريد ان تفرض على العالم المثالية السوفياتية ، نلاحظ انها تجد ، في جزء من دنيا الاسلام عموماً وفي طوران على الاخص ، محيطاً منقسماً على نفسه ، وانها تستطيع ان تتخذ من هذا الانقسام اداة لفصم عرى الوحدة الاسلامية . ذلك ان الخلاف بين الشيعة والسنة ما برح قائماً . وقد ظهرت في آسيا الى جانب المسلمين المحافظين شيع تنكرت للتقاليد ومضت تنشد مثالية جديدة . ولا ريب في ان روسيا لن تكتفي باستغلال هذه الشيع ، بل ستحاول استخدام الاوساط المحافظة نفسها في زعزعة

١ لا بد من التنويه بان النشاط السوفياتي لم يبدأ الا بعد تدخل اميركا سياسياً واقتصادياً في الشرق الادنى وايران .

الوحدة الروحية ليسهل عليها فرض سيطرتها السياسية ومثاليتها السوفياتية .

ومن اجل بلوغ الغاية نفسها يضغط الروس والشيوعيون الصينيون ، في هذه الآونة ، على بلاد التبت محاولين اخضاع المراكز الدينية البوذية لسيطرتهم المطلقة .

نحن اذاً امام خطة مدروسة لا سبيل الى انكار اهميتها وخطورة مراميها . ولكن الصين التي تساهم في اللعبة السوفياتية تضم اقلية مسلمة متحلية بالتقوى والشجاعة الادبية . وقد يأتي يوم تثور فيه هذه الاقلية ضد المحاولات الرامية الى استعباد الشعب الصيني واخضاعه لسلطان الآلة . ولا ننسى ان القوى الروحية في الشرق الاقصى عميقة الاغوار . « اطلبوا العلم ولو في الصين » هكذا قال النبي محمد . ومن يدري فقد كانت الانتفاضة الصينية في وجه المثالية السوفياتية بداية الحدث الذي جاء ذكره على لسان الرسول العربي . ومهما يكن من امر ، فآسيا الوسطى والهند هما ، في الظروف الراهنة ، مهد حركات فكرية يخشى ان تطغى على الاسلام المستقيم الرأي إما بنشرها الدعوة الى الاخذ بمفهوم الدين الكوني او الشامل وذلك بدمج الاديان المنزلة بعضها ببعض ، او بتبنيها المفهوم السوفياتي للمجتمع ، فتغفل شأن الفرد وتكل الى الآلة مهمة السير بالانسان على الطريق المؤدي الى السعادة .

ويبدو الوضع في شبه الجزيرة العربية وسوريا وافريقيا غيره في آسيا الوسطى والهند . ففي هذه المناطق لم يظهر سوى المصلحين والمهدين الراغبين في العود بالاسلام الى صفائه البدائي . واذا سلمنا جدلاً بان الاقطار الطورانية والحيز الاكبر من ايران تجنح الى

الاخذ بمثاليات لا تتفق والايمان الصحيح ، فحوض البحر المتوسط يحافظ على هذا الايمان الصحيح حتى في سعيه الى التوفيق بين الدين وبين الثقافة العلمية والتكنيكية . وقد رأينا الازهر يشجب الشيوعية ، ورأينا تركيا تنشد مساعدة الولايات المتحدة الاميركية وتنضم الى ميثاق الاتلنتيك لانها تخشى بطش جارتها روسيا السوفياتية .

ان آسيا اليوم لفي فوران ، واقرب شاهد على ذلك الحرب الكورية . ومن الغليان الذي يهيج الاسيويين يمكن ان يتولد انقلاب شديد الخطورة بالنسبة الى اوروبا وافريقيا معاً . ولئن يكن الاسلام واحداً من حيث جوهر العقيدة ، فهو في حوض المتوسط عرضة للخطر الذي يهدد النصرانية بفضل النزعات الاسيوية ، ولا نستثني نزعات المسلمين الطورانيين . فتفوق العنصر العربي والخصائص المحلية للشعوب الاسلامية في المتوسط يمكن ان تزول اذا ساد المفهوم السوفياتي ـ الاسيوي للدولة ومسخ الانسان الذي يريده السوفيات ملكاً للدولة مخلوقاً آلياً من جراء توحيد عناصر الانتاج .

ولا جدال في ان الحضارة الغربية ذات الاسس المسيحية المتذوقة للجمال منذ عهد الاغريق الاول ، المتشبعة باحترام الشرائع تمشياً مع روما ايام كانت امبراطورية ، المحبة للانسان عملاً بالتعاليم المسيحية ، لا جدال في ان هذه الحضارة تلتقي والحضارة العربية ، فضلاً عن التربية الاسلامية ، على صعيد المبادىء الاساسية . وقد عبر عن هذا الشيخ بن باديس في مؤتمر العلماء الذي التأم في قسنطينة (الجزائر) سنة ١٩٣٦ عندما قال : « ينبغي لنا ان نبعث في مسلمي الجزائر العقائد الدينية الاولى القائمة على الحقيقة والعلم ، واملنا وطيد بانهم متوصلون الى تمييز الدين الحقيقي من المعتقدات الباطلة ، ومستلهمون

في كل ما يفعلون تعاليم الاسلام ومبـادىء المساواة والاخوة والتسامح والمساعدة المتبادلة ومحبة القريب . »

ولا شك في ان منهج الشيخ بن باديس يرحب به ويتبناه كلُّ من يتحلى بالارادة الحسنة ، ويرغب رغبة صـادقة في ان يرى الاسلام والنصرانية متعاونين على اساس التفهم والاحترام المتبادلين ، ويحرص على قيام توازن منسجم بين الحاجة والتكنيك من شأنه تحسين مستوى البشرية دون ان يستعبدها ، واحترام القيم الروحية والانسانية . ولا شك كذلك في ان هذا التفهم المتبادل يفرض نفسه اليوم حيـال الخطر المشترك . ولا ننسى ان الديانة اليهودية ، التي تفاقم ضدها الشعور العدائي بعد قيام دولة اسرائيل ، مهددة هي الاخرى ، وانه ينبغي لها ان تحتل مكانها في الجبهة المشتركة .

بعنوان « النصرانية والاسلام » يؤكد اميل درمنجايم في كتابه « حياة محمد »[١] ان الهوة التي تفصل بين المسيحيين والمسلمين لا وجود لها ، في الواقع ، بين الاسلام والنصرانية ، فهي وليدة سوء التفاهم . فمن الاحاديث النبوية : « من تعدى على ذمّي فانا خصيمه يوم القيامة » .

ويزعم درمنجايم ان شارحي القرآن ، بدلاً من ان يبرزوا وجوه الشبه بين الديانتين المنزلتين ، اجتهدوا في انكار وجودها او تجاهلوها . ويعتقد فرنسيس دي ميوماندر الذي علّق على كتاب « حياة محمد » في مجلة « الاخبار الادبية » *Les Nouvelles Littéraires* ان الشعوب

١ اميل درمنجايم : « حياة محمد » ، طبع في الجزائر وتولت نشره دار « شارلو » .
Emille Dermenghem, *La vie de Mahomet*, Alger, Ed. Charlot.

في ايامنا تبدو مقتنعة بان الايمان المشترك بالله الواحد هو من عوامل التقارب وليس عاملاً من عوامل التباعد والتباغض . يضاف الى هذا ان الاسلام يعترف لموسى والمسيح بصفة النبوة . ويقول المسلمون ان الوحي الذي هبط على النبي العربي قد انزل ديناً سماوياً افضل . وفي هذه الحالة لا يمكن ان يؤدي الاسلام ، في جوهره ، الى مقت الموسوية ولا المسيحية . اما الهوة التي حفرها في الماضي سوء التفاهم بين اتباع الديانات الثلاث فيمكن ردمها اليوم بالتفهم المتبادل .

ان الكتلة الاسلامية التي تضم نحواً من ثلاثمئة مليون لا يجوز اغفال شأنها في ظروف العالم الراهنة . ولا مشاحة في ان الدين الاسلامي من الاحداث التاريخية العظمى التي كان ولا يزال لها اثرها البارز في توجيه البشر . وليس هنا مجال المقارنة بين الاسلام وباقي الاديان . فما يهمنا في هذا الباب هو ان نقرر ان هذا الدين المنزل يمثل « فكرة – دافعة » نمت وثبتت ، وانه قيمة معنوية ذات شأن ، لان مئات الملايين من البشر الخاضعين لشرائعه قد اتخذوا منه مثالية لهم . فالامل كبير ، والحالة هذه ، ان تدرك الشعوب الاسلامية انها تستطيع العيش بسلام مع الذين يقولون بمثالية تختلف عن مثاليتها ، دينياً وروحياً ، ولكنهم متشبعون بالرغبة الصادقة في العمل لما فيه مصلحة البشر كافة .

لا يجوز بعد اليوم ان يعتبر المسلمون الحضارة الغربية قائمة على اساس محض مسيحي . فالخطر الاسيوي يجب ان يفتح عيون الجميع على ان للحضارة العربية والتربية الاسلامية ، من حيث الجوهر ، اهداف الحضارة الغربية ومصالحها ، وذلك على اختلاف نقطتي انطلاق

الحضارتين واختلاف وسائلها . فالتقاؤهما وتعاونها لا يمكن ان ينجم عنها غير افضل النتائج .

ينبغي للاسلام ، اذاً ، في منتصف القرن العشرين ، ان يتخذ موقفاً صريحاً : ان تطوره يجتاز لحظة بسيكولوجية دقيقة .

نشوء الدول الاسلامية المعاصرة

من فكرة الامة الاسلامية الى فكرة الوطن

تقدم معنا ان الحضارة العربية ، التي انتشرت بفضل الفتح الاسلامي ، لا يمكن ان تندمج بالحضارة الغربية ، ولكن المسلمين مضطرون ، حتى في الوسط الاسلامي البحت ، لقبول الثقافة العلمية العصرية واستخدامها في تحقيق النمو المادي لمجموعاتهم العنصرية .

اجل ، اضطر المسلمون ، مع استمرارهم في الحفاظ على جوهر الدين ومبادئه الاساسية ، الى التسليم بتداخل خارجي بين تربيتهم الخصوصية والحضارة الاوروبية ، هـذه الحضارة التي اقتبس منها بعض المسلمين المتصفين بالجرأة والاقدام تدابير سياسية من شأنها تعديل الهيكل التقليدي للحكومات الاسلامية .

تجلى هذا التطور عملياً في مسألة الامامة التي شغلت في الماضي العالم الاسلامي .

معلوم ان النبي لم يعنَ بتنظيم مسألة الخلافة . ويغلب على الظن انه ما فكر قط بتأسيس بيت مالك . ومهما يكن من امر فالقرآن خلو من اية اشارة الى هـذه المسألة . وبعد النبي ظهرت النظرية القائلة ان شؤون المسلمين يجب ان يتعهدها خليفة او امام فرد يسميه الخليفة السابق في حياته ، او تختاره بعد موت سلفه جماعة المؤمنين . وقضت النظرية نفسها بان يكون الامام قرشياً ومن سلالة النبي ، وان يمارس السلطة الروحية والسلطان الزمني . وقد رأينا الخليفة

او الملك ، فيما بعد ، يعهد بالسلطة الروحية الى شيخ الاسلام . وبعد زوال الخلافة (٣ آذار ١٩٢٤) حل محل شيخ الاسلام عملياً في كل قطر اسلامي « مجلس العلماء » الذي يلتئم كلما دعت الحاجة الى التئامه .

كان الخليفة يحمل لقب « امير المؤمنين » ، وكانت صلاة الجمعة تقام باسمه . وقد اتفق احياناً ان تخطى العلماء الذين يعود اليهم امر اختيار الخليفة الجديد القاعدة المتبعة ، فرفضوا تسمية احد ابناء الخليفة السابق ليختاروا الاصلح من اشقائه او ابنائهم او ابناء عمومته الخ ...

وقد اثارت الخلافة ، بادىء ذي بدء ، منازعات شديدة . بيد ان الخلفاء الثلاثة الاوّل تم اختيارهم دون كبير عناء ، وكانت خلافة علي بن ابي طالب وما رافقها من مشادات ومعارك ، وتسلم بني امية زمام الامور من بواعث الشقاق الذي قضى على وحدة الصفوف ، فكان المتشيعون لعلي (الشيعة) ، وكان الخوارج . وهو انقسام لا يزال مشاهداً في ايامنا .

استولى الاتراك على الخلافة في العام ١٥١٦ وانتزعوا من العرب دفة القيادة ، قيادة العالم الاسلامي ، بعد ان استلوا العرش من تحت اسيادهم العباسيين . ولا ريب في ان مسألة الامامة كانت في طليعة المسائل التي شغلت الرأي العام الاسلامي بعد انتقال السلطة بشقّيها الى الاتراك . ويمكن القول ان هذه المسألة لا تزال قائمة ، فالمسلمون يرغبون في احياء الخلافة ، ولكن المؤتمرات التي عقدت لهذا الغرض لم توفق الى اختيار الخليفة المنشود .

لقد عجزت الامامة في الماضي عن تحقيق وحدة العالم الاسلامي

على الصعيد السياسي . اما اليوم ففكرة « الامة الاسلامية » قد تركت مكانها لطراز جديد من الحكم حركت القوميات التي نشأت ونمت في نطاقه المطامع الشخصية لدى ملوك يطمع كل منهم الى الامامة .

يمكن ان تثار مسألة الامامة في ايامنا على الصعيد الديني البحت ، ولكن من المشكوك فيه ان يفضي حلها الى توحيد الاسلام زمنياً . فالتنافس بين العرب والاتراك قد ساهم الى حد كبير في نمو القوميات العربية ، وحافظ العرب ، عندما كانوا خاضعين للسيطرة العثمانية ، على ايمانهم بتفوق عنصرهم ، مما جعل السلاطين في استمبول شديدي الحذر من العرب سواء من كان منهم في سوريا او الحجاز او نجد او اليمن . وقد عمد السلطان عبد الحميد الثاني[1] ، بعد ان احتل بعض الدول المسيحية تركيا الاوروبية والقوقاز مجدداً ، الى توطين المسلمين الذين هجروا الولايات المحتلة في تركيا الاسيوية حيث انتشروا جوالي زراعية ـ عسكرية على طول مناطق الحدود المتاخمة للبلاد العربية او في النقاط الاستراتيجية الواقعة في قلب الاقطار العربية . كان المهاجرون من ابناء الروملّي وبلغاريا وبلاد الكرج (جيورجيا) والشركس الخ ... وقد الفوا نوعاً من الثكنات او المخافر العثمانية المتحفزة دائماً للتدخل في حال لجوء العرب الى العصيان او الثورة . وبعض هذه الجوالي لا يزال

١ كان عبد الحميد الثاني سياسياً حاذقاً واحد دعاة الوحدة الطورانية . ولو تم اتحاد الحركتين : حركة الوحدة العربية وحركة الوحدة الطورانية ، لتحققت وحدة الاسلام ، ولكن الحركة الثانية قامت لمحاربة الاولى ، فضعفت كلتاهما وازداد الاسلام انقساماً .

حيث وطّنه العثمانيون ، ويتمتع برعوية الدولة التي هبطها مهاجراً ليخدم فيها اغراض العثمانيين[1] .

اوردنا هذا الشاهد للتدليل على مبلغ ثقة استمبول بولاء العرب لها . وقد تابع هؤلاء نشاطهم في الحقل السياسي بصفة كونهم رعايا الدولة العثمانية ، وكان لنوابهم جولات موفقة في استمبول . وعلى اثر نشوب الحرب العالمية الاولى بدا العداء سافراً بين العرب والاتراك . وقد حاولت استمبول منذ اللحظة الاولى قطع الطريق على دعاة الوحدة العربية والدعاوات الانكليزية والفرنسية ، فاعلن السلطان الخليفة الجهاد (الحرب المقدسة) ، والجهاد هو احد اركان الدين الاسلامي ، ولكن الوحدات المسلمة في الجيشين البريطاني والفرنسي لم تتأثر بهذه البادرة . وفي الوقت نفسه عرفت الدبلوماسية البريطانية كيف تستغل نقمة العرب ، فعملت بواسطة فيلبي في نجد ولورانس في الحجاز على اثارة البلاد العربية ضد الامبراطورية العثمانية . واوفدت فرنسا الى الحجاز بعثة الكولونيل « بريمون » التي انتقلت من ثم الى ارمينيا فكيليكيا[2] . وقد بادر شريف مكة الحسين بن علي الى حمل راية الثورة ، وعهد الى نجليه فيصل وعلي بقيادة الجيش العربي . وعجز الاتراك عن سحق الثورة ، ثم اضطروا للتراجع امام فيالق الاميرين العربيين اللذين بلغا دمشق على رأس قواتهما حيث تم الاتصال

١ اقترح عبد الحميد على هرزل مؤسس الحركة الصهيونية تنازل الدولة العثمانية لليهود عن فلسطين في مقابل مبلغ من المال ، ولكن الصهيونيين لم يتمكنوا من جمع المبلغ المطلوب .

٢ فلاش هم الفرنسيون الذين قدروا ما قامت به هذه البعثة ، وما حققته من قبل ، في دنيا الاسلام ، بعثات بوتان ولوسكاريس وسيباستياني في عهد نابوليون .

بينها وبين الفرنسيين والبريطانيين القادمين من مصر .

القى الالمان والاتراك السلاح ، فوضع العراق والاردن وفلسطين تحت الانتداب البريطاني ، وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي . اما كيليكيا فقد اعادتها فرنسا الى تركيا الجديدة — تركيا مصطفى كمال — في العام ١٩٢١ . وفي شبه الجزيرة العربية حقق الوهابيون الوحدة بين الحجاز ونجد . اما اليمن فقد انطوى على نفسه مؤثراً العزلة .

انصرفت تركيا ، خلال الفترة الفاصلة بين الحربين العالميتين ، الى تنظيم نفسها كدولة عصرية ذات نظام جمهوري . اما البلدان الواقعة تحت الانتداب فقد قضت الفترة نفسها باحثة عن توازنها ، في جو لم يخل من الصدام . وقد وعت شخصيتها خلال ذلك ، وبرزت الطوابع الاقليمية كنتيجة منطقية لعدم تحقيق الوحدة العربية . ويمكن القول ان الانتدابات قد ساهمت ، الى حد ما ، في انشاء الدول العربية بشكلها الراهن . ومنذ ١٩٤٥ توصلت القوميات العربية الى حمل الدول في الشرق والغرب على الاعتراف باستقلال دول المشرق ، هذا الاستقلال الذي ثبت اركانه قيام دولة اسرائيل دون ان يترتب على الشعور بالخطر المشترك قيام تحالف فعلي بين الدول ذات العلاقة .

لقد ترتب ، اذاً ، على زوال الامبراطورية العثمانية ، نشوء دول جديدة هي — الى جانب مصر التي كانت السابقة في مضمار التحرر من النير العثماني — : العراق وسوريا ولبنان والاردن . اما فلسطين فقد جزئت بضم رقعة منها الى الاردن ، وانشاء اسرائيل في الرقعة الاخرى . يضاف الى هذه الدول العربية في الشرق الادنى العربية ،

السعودية واليمن . وترتب على زوال الامبراطورية العثمانية في الوقت نفسه نشوء الجمهورية التركية ، دون ان يؤدي هذا التحول الخطير الى زوال ما بين الاتراك والعرب من عوامل التنافس والنفور مما يقف حجر عثرة في طريق بعث « الامة الاسلامية » .

كان ما حصل بعد الحرب العالمية الاولى اجهازاً على الامبراطورية العثمانية . فقد اتاح ضعفها قبل الحرب للقطر المصري ان يتحرر من نير سيطرتها ليقع تحت نير الحماية البريطانية . وتحررت كذلك الولايات العثمانية في افريقيا الشمالية ، مع العلم ان خضوعها للسلطنة كان اسمياً . وخضعت ليبيا للسيطرة الايطالية ، وتونس والجزائر للسيطرة الفرنسية ، في حين ادى التوسع الاوروبي في افريقيا السوداء الى نشوء امبراطوريات جديدة .

اما مراكش فيمكن القول انها ما اعترفت قط بالسيادة العثمانية ، فسلطان مراكش هو وارث خلافة الاندلس . ففي العام ١٣٩ للهجرة (٧٥٨ م) سلم سكان اسبانيا مقاليد امورهم الى عبد الرحمن الداخل واطلقوا يده في تدبير شؤونهم ورعايتها . « وكان عبد الرحمن هذا سبباً في تجزئة الخلافة الاسلامية وجعلها خلافتين : الخلافة الاموية في اسبانيا والخلافة العباسية في بغداد[١] . » وقد وضع السيد « سوردون » دراسة قيمة عن قيام الخلافة الاسبانية ـ المراكشية المتصلة ، من حيث المنشأ ، بالاسرة العلوية (نسبة الى الامام علي) . ويقول « سوردون » ان وضع اسبانيا الخاص قد

١ سوردون : «فرنسا في افريقيا الشمالية»
Surdon, *La France en Afrique du Nord.*

اضطر ائمة الشرع الاسلامي الى سن شرع جديد اتاح للمذهب المالكي مجاراة المجتمع الاندلسي في تقدمه المطرد، وايجاد حلول فقهية لمواجهة الحالات الطارئة. وهكذا نشأ في المغرب الاقصى مجتمع ذو طابع نلمسه اليوم في الدولة الشريفية المراكشية. وقد وحّدت الحماية الفرنسية البلاد بضمها الاقليم العاصي إلى الاقليم الخاضع للسلطان، ولكن مراكش الموحدة لم تفقد طابعها الخاص في نظر الدول العربية في الشرق الادنى.

تبسط اسبانيا سيطرتها على جزء من مراكش الحالية، ولكن سلطات الخلافة التي يمارسها سلطان مراكش الاسبانية مقصورة على حل المسائل المعلقة بينه وبين سلطات الاحتلال. وفي وسع السلطان المراكشي في المنطقة الخاضعة للسيطرة الفرنسية الزعم انه الخليفة الشرعي الوحيد في العالم الاسلامي المعاصر، وان يكن المسلمون خارج سلطنته لا يعترفون له بهذه الصفة.

•

الى الشرق من الامبراطورية العثمانية تقع بلاد فارس (ايران) وما كان العرب يسمونه طوران. وقد وقفت اولاهما دائماً في وجه سلاطين بني عثمان وحرصت على فرديتها كدولة تعيش على هامش الحركة الاسلامية السنية.

احتل العرب ايران العام ٦٣٧ ، فانضمت الى الشيعة، واعتمدت المذهب الشيعي ديناً للدولة. وفي كنف هذه المخالفة او هذا الخروج على ما كان يشبه الاجماع، حافظت بلاد فارس على استقلالها السياسي والروحي والفكري. ولا يختلف وضع الافغان عن وضع جارتها، ولكنها اشد استمساكاً من بلاد فارس بالاسلام

السني . وقد احرزت استقلالها في ٨ آب ١٩١٩ . الا ان جوار الروس يضطر الافغان وايران (بلاد فارس) وتركيا الى اعتماد نهج دولي معين سنعود اليه فيما بعد .

في الهند انتشر الاسلام على نطاق ضيق نسبياً بفضل المسلمين الذين هبطوها من بلاد فارس براً وبطريق البحر من البلاد العربية . ثم اجتاحتها جيوش تيمورلنك الذي انطلق من سمرقند يخضع الامصار باسم الاسلام . وقد بلغ في زحفه نهر « الغانج » وانشأ امبراطورية « المغول العظام » التي قوّض دعائمها الاحتلال البريطاني .

واخيراً اثار ظهور هندستان وباكستان والولايات المتحدة الاندونيسية (وهي البلدان التي تضم عناصر اسلامية نشيطة ووافرة العدد) مسائل جديدة بعضها شائك . ولا ننسى ان في الفيليبين اقلية مسلمة (المورووس) ، وان في الصين واليابان نواة اسلامية لها شأنها . ولقد بقيت البلاد العربية وتركيا قروناً قلبَ العالم الاسلامي ، وانتشر في الغرب مسلمو افريقيا ، وفي الشرق مسلمو ايران وطوران والشرق الاقصى ، واظهر هؤلاء نزعات معقدة ابقتهم خارج اللحمة الروحية التي تشد مسلمي الغرب بعضهم الى بعض .

وكانت اوروبا ، منذ قرون ، قد بلغت من التقدم مبلغاً اتاح لامم الغرب ان تفرض سيطرتها السياسية والاقتصادية على بلدان آسيا وافريقيا ، ولاسيما البلدان الاسلامية . بدأ الاسلام برفض محاولات التفاهم والتوفيق على الصعيد الفلسفي ، مؤثراً الانطواء على نفسه . اما اليوم فمع بقاء المسلم مقتنعاً بان لا خلاص خارج الاسلام ، نراه جاداً في السعي الى اماطة اللثام عن سر تفوق اوروبا واميركا المادي ، مع العلم ان الثقافة الغربية هي في نظره واسطة وليست غاية .

في هذا الحقل كان تطور المسلمين عميقاً ، وقد تجلى في بعض اقطارهم بانشاء الدولة العلمانية . بيد ان هذه الخطوة الجريئة حققتها دائماً ارادة زعيم قادر ، ولم تكن قط وليدة الارادة الشعبية .

سجل العام ١٩٥٠ نشوء قوميات ذات طابع محلي عصري في اقطار اسلامية منها المستقل ، ومنها شبه المستقل ، ومنها الخاضع للسيطرة الاجنبية . وتركت فكرة « الامة الاسلامية » مكانها — على الصعيد السياسي — لفكرة الوطن ، بعد ان كان زوال الخلافة قد فسح للطوابع المحلية الخاصة في مجال الظهور على الصعيد الديني . ولا جدال في ان انتشار الفكرة الجديدة يوازي انقلاباً حقيقياً ، بل ثورة فعلية ان هي لم تقضِ على فكرة الدولة الدينية ، فقد افضت الى اضعافها لمصلحة الدولة العلمانية ، حتى في حال بقاء الاسلام ديناً رسمياً لهذه الدولة .

وكشف العام ١٩٥٠ عن ناحية جديدة للمسألة الاسلامية . فقد بقيت مصر والشرق الادنى ، حتى الامس ، محورَ النمو الفكري الاسلامي . اما اليوم فيبدو ان آسيا مدعوة الى تعديل هذا الوضع . ذلك بان فكرة « آسيا الكبرى » التي طلعت بها اليابان قبل الحرب العالمية الاولى قد انتشرت بسرعة في العالم الاسيوي ، وفي الوقت نفسه ترتب على الفتوحات الغربية في الشرق الاقصى نشوء قوى جديدة قادرة على تهديد اوروبا . فهل ينساق الاسلام الاسيوي مع التيار ويعمل ، في نطاق البلدان والانظمة التي يعيش في كنفها ، على اجتذاب مسلمي الغرب نحوه ، ام يبقى مخلصاً لفكرة « الامة الاسلامية » ؟ واذا صح ان العنصر العربي فقد معالم التفوق الذي كان له في العالم الاسلامي ، وان نفوذ البلدان التي تأثرت بالمثالية

الطورانية آخذ بالنمو ، فهل نشهد قريباً انتقال محور النشاط الاسلامي الى القارة الاسيوية ؟ وهل يطغى ما تتمتع به سمرقند وطشقند من نفوذ ديني على نفوذ دمشق والقاهرة ؟

في الباكستان يدعو السيد شاودوري (؟ [١]) الى وحدة اسلامية من طراز عصري . فهو يقترح ، رغبة منه في توحيد كلمة مسلمي الشرق ، انشاء اتحاد يطلق عليه اسم « اسلامستان » يتجلى في نطاقه تعاضد المسلمين . هذه الفكرة ومثيلاتها تبدو في الظروف الحالية غير قابلة التحقيق ، ولكنها تدل على خروج شعوب آسيا من سباتها العميق والطويل ، وعلى تحفزها للتوسع .

ولا يسع الباحث ، وهو يعرض لهذه الناحية الجديدة في المسألة الاسلامية (اي احتمال انتقال محور النشاط الفكري من مصر والشرق الادنى الى آسيا) ، ان يسقط من حسابه تأثير الولايات المتحدة الاميركية وروسيا السوفياتية اللتين تتسابقان الى خطب ودّ الاسلام . تقول في هذا مجلة افريقيا وآسيا [٢] :

« في جملة الوقائع الجسيمة التي يحفل بها تاريخ عصرنا ما نشهده من انهيار الامبراطوريات التي انشأتها اوروبا الغربية في آسيا وافريقيا . وعلى انقاض هذه الامبراطوريات تحاول الاقوام ان تنشيء صرح استقلالها الذاتي لتستحيل عاجلاً او آجلاً امماً عصرية .

« وهذا التطور ليس كله من صنع الامم الاوروبية ، فقد

١ لعل الكاتب يقصد السيد خليق الزمان . اما لفظة شودري فتقابلها عندنا لفظة افندي او بك . — المعرب .

٢ العدد العاشر (١٩٥٠) بعنوان : « القومية قوة بناءة ».

Revue *Afrique et Asie*, année 1950, No 10 : « Le Nationalisme, Force Constructive ».

فرضته على العالم ، عملياً ، مثالية " سياسية نشأت ما وراء المحيط الاطلسي ، وأستوحيت منها مبادىء ويلسن الاربعة عشر وميثاق المحيط الاطلسي الذي وضعه الرئيس روزفلت .

« استوحى الاميركيون مثاليتهم من اختباراتهم الخاصة ، وكانت نقطة الانطلاق نجاح تجربتهم الاتحادية . وقد سلطوا اضواء الماضي على المستقبل فقام في ذهنهم ان ما حدث في اميركا يصلح ان يكون اساساً لتطور آسيا وافريقيا . ألم تحمل اوروبا منذ قرنين الى امبراطورياتها فكرة الدولة العصرية ؟ وقد قامت مذ ذاك دول عصرية في البلدان التي استطاعت الحفاظ على استقلالها كاليابان وايران والافغان واليمن وتركيا ، ولم يبق – في نظر الاميركيين الذين يريدون فرض مثاليتهم على العالم القديم – الا مساعدة البلدان الافريقية والاسيوية غير المستقلة على التطور بسرعة . ومن هنا كان عداء الاميركيين للنزعة الاستعمارية واعتمادهم نهجاً لا يتفق والمصالح البريطانية والفرنسية ما وراء البحار .

« ولكن المشروع الاميركي يواجه عقبة ذات بال . ففي آسيا امبراطورية تقاوم بنجاح العمل التخريبي الذي يرمي ، منذ عشر سنين ، الى القضاء على النظام الاستعماري . وهذه الامبراطورية (الامبراطورية الروسية الآخذة بالتوسع) تهدد كيانات الدول المستضعفة المجاورة لها . ألسنا هنا حيال مسألة خطيرة لم تكن قائمة في العام ١٩٤٤ ، مسألة تجاور امبراطورية متعطشة الى الفتح والتوسع وامم فتية وضعيفة لم تعرف اوروبا التي انهكتها الحروب ، او لم تستطع ، او لم تشأ حتى اليوم ، ان تأخذ بيدها في طريق النضج والتحرر من الوصاية ؟ من اين للدول العصرية العتيدة في

افريقيا وآسيا الطاقة على مقاومة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية المجاور لها او الذي تفصل بينه وبينها مسافات شاسعة ؟ لكي يتسنى لهذه الدول الصمود في وجه محاولات الغزو والدعاوات الشيوعية ، يجب ان يكون للشعور القومي الذي يحركها القدرة الكافية على الخلق والبناء . »

يتضح مما تقدم ان الخطر الذي يتهدد الامبراطوريتين الفرنسية والبريطانية مصدره اميركا والاتحاد السوفياتي على السواء . فما عساه يكون موقف المسلمين ، الذين تأهل بفريق منهم ممتلكات ما وراء البحار ، من هذه التيارات المتعارضة ؟ مما لا ريب فيه ان المثالية الاميركية والصوفية الروسية يمكنهما ان تخدما المطامح والاماني الاسلامية ولكن لوقت محدود ، وان الولايات المتحدة الاميركية تستطيع ان تقدم الى المسلمين العون الاقتصادي والمادي الذي يحتاجون اليه . بيد ان هذا العون لن يكون دون مقابل ، فقد تتقاضى الولايات المتحدة ثمناً له فرض سيطرتها الاقتصادية وما يتبع هذه السيطرة من فرض نوع من الوصاية السياسية لا تهضمه عقلية المسلم . ويجوز القول كذلك ان الصوفية الروسية يمكنها ان تلتقي والصوفية الاسلامية على اكثر من صعيد . فالنظرية الاممية القائلة بتحرير الشعوب تجد تربة صالحة في البيئة الاسلامية ، وتصلح بالتالي ستاراً لاخفاء مرامي الدعاوات الشيوعية التي نشطت في دنيا الاسلام منذ ١٩٢٠ . وقد جعل النضال ضد الاستعمار من هذه الدعاوات حليفاً للتعصب الديني والشعور القومي المتطرف . إلا اننا نلاحظ ان المبادىء الشيوعية لم تستهو السواد الاسلامي بالرغم من التوافق الظاهر بين الاقتصاد الاجتماعي كما تفهمه الشيوعية والنظام

الزراعي الذي يسود بعض المناطق الاسلامية . ذلـــك بان البيئة الاسلامية ، التي لا يزال عدد العمال فيها ضئيلاً نسبياً ، تشيح بوجهها عن الماركسية لانها ، على حد قول بلـّيغران : « تجعل سعادة الانسان على الارض رهناً بتنظيم خيرات الدنيا تنظيماً يقوم على اساس توزيع الثروات ، وبتحرير البشر من قيود الدين . فغاية الشيوعيـة هي تنظيم احوال البشر في دنياهم ، امـا غاية الاسلام فهي التسليم لمشيئة الله . »

الاسلام ، في الواقع ، ظاهرة اجتماعية ذات طابع ديني بحت . وروحية الاسلام لا بد مصطدمة ، عاجلاً او آجلاً ، بالمفـاهيم التي لا تعترف بوجود الفرد ، وتقـدم الدولة على الدين ، وتخفض من شأن البشر الى الدرجة القصوى ، حتى في حال استنادها موقتـاً الى الصوفية الروسية بغية تحقيق مطامعها العاجلة . اجل ، ليس من هذا التصادم بدّ ، الا اذا طرأ على الاسلام تحوّل اساسي يـنزع به الى التنكر لتقاليده وشرائعه ، وهذا امر بعيد الاحتمال ...

يقع الاسلام بين اوروبا – افريقيا واوروبا – آسيـا ، اي في وسط حلبة الـنزاع الذي تريد الولايات المتحدة الاميركيـة ان تجرّ اليه آسيا الشرقية ، معتمدة على اوروبا – افريقيا في محاولتهـا ابقاء اوروبا – آسيا في نطاق يطمح جنكيزخانات هـذا العصر الى الخروج بها منه . فاذا قبض الاسلام الاسيوي ، المنبثق جزئياً من الفتح المغولي ، على الدفة وتولى قيادة الحركة الاسلامية الى جانب تبنـّيه النظرية القائلة بوجوب اخضاع العالم لسيطرة اوروبا – آسيا بزعامة روسيا ، فما يكون مآل الاسلام في حوض المتوسط وافريقيا والشرق الادنى ؟ أيمكنه الحفاظ على استقامة معتقداته وعلى تقاليده

المقدسة ؟ يعود الى المسلمين ان يفترضوا مواجهة هذا الاحتمال الخطير ويجيبوا عن هذا السؤال .

مما لا ريب فيه ان القوميات العربية الاصل عاجزة في الوقت الحاضر عن صون كياناتها . ومما لا ريب فيه كذلك ان النجاح الوحيد الذي سجلته الحركة القومية في آسيا هو قيام الجمهورية التركية (لا ننسى ان الاتراك العثمانيين فرّوا من وجه الاتراك المغول ولجأوا الى آسيا الصغرى) ، وان مصطفى كمال جعل من تركيا امة عصرية ، قوية ، لم تحجم عن فصل الهيكل السياسي للدولة عن الشرع الديني . بيد ان تركيا الحديثة هذه تحمل في ذاتها بذور الانقسام ، وقد افقدها تطورها زعامة العالم الاسلامي . وتشكو ايران والافغان واليمن والعربية السعودية ضعفاً متفاوت الدرجات ، وهي اقرب الى شكل الدولة الشرقية القديم منها الى شكل الامة الديموقراطية بمفهومها الحديث . اما الدول العربية في المشرق فقد حالت الخلافات الداخلية ولا تزال تحول دون قيام لحمة حقيقية فيما بينها بالرغم من محاولاتها المتكررة في سبيل التفاهم والاتحاد .

يخشى اذاً ، والحالة ما ذكرنا ، ان يبدو العالم الاسلامي ، في هذه اللحظات الحاسمة من التاريخ ، وكأنه بيئة يحتمل ان تجد فيها دسائس الدول الاجنبية الطامحة الى السيطرة على العالم مناخاً ملائماً لها . ولكن اذا جاز اعتبار الاسلام ، حالياً ، ضعيفاً كقوة زمنية ، فلا يغربنّ عن البال انه قوي بايمانه ، هذا الايمان الذي يحفز للعمل مئات الملايين من المؤمنين .

ان مستقبل آسيا وافريقيا هو اليوم موضع اهتمام خاص في

الولايات المتحدة وروسيا ، وفي اوروبا الغربية. ويتتبع الذين لهم خبرتهم في شؤون القارتين ، بفضول ولهفة ، نتيجة الصراع القائم بين الجبارين ، لان المسألة ليست مسألة تنافس بين عقيدتين : انها مسألة حياة او موت لملايين من البشر يجدون انفسهم في بحران من الفوضى والقلق اللذين اثارهما التحوّل المفاجيء الذي طرأ على العالم القديم .

ان الاكتفاء بالمراقبة بحجة ان الحوادث تجاوزتنا من شأنه ان يؤدي بنا الى الجمود . فقد مرّت بالعالم ظروف كالتي يجتازها الآن ، ورأينا الامة اللاتينية تأخذ بمفهوم جديد للسلطة عندما احلّت فكرة الدولة محل فكرة الزعيم الاقطاعي . ومن فكرة الدولة انبثقت فيما بعد فكرة الامبراطورية . واليوم يعود العالم الى الاخذ بفكرة الوطن الخاص بكل عنصر ذي طوابع مميزة في حقول الدين والاجتماع والاقتصاد ، وله كذلك واقعه الجغرافي . وقبل ان يتم للعناصر تحقيق مطامحها الخاصة ظهر تياران كبيران ينزعان الى جرّ الاوطان الصغيرة الى دائرة منظمات امية تعمل على فرض سيطرة احدهما . وهذان التياران هما المثالية الاميركية والصوفية الروسية . فهل يكون زوال الاوطان الصغيرة في مصلحة البشر ام وبالاً عليهم ؟ لسنا نملك الاجابة عن هذا السؤال ، ولكننا مؤمنون بالاوطان تربةً صالحة لنمو القيم الروحية وصونها . فاذا كانت هذه الاوطان المنبثقة من الحركات القومية ضنينة بوجودها ، فينبغي لها ان تواجه الخطر المحدق بها صفاً واحداً ، تحدوها الرغبة المشتركة في الدفاع عن مثلها العليا .

ويلوح لنا ان القوة المادية قادرة على سحق كل ما يعترض سبيلها . ولكن لا ننسى ان الفكرة اقوى من الموت . فمتى وجد

الايمان – على شكل مثالية او عقيدة دينية – لا تعدم الفكرة وسيلة للخروج مجدداً من بين الانقاض . لقد مرت بفرنسا ، في تاريخها الطويل ، ظروف قاسية ، ولكنها عرفت كيف تقهر الموت بالفكرة ، ومن اجل الفكرة او المثالية . ولا ريب في انها ستتغلب على مصاعب الساعة يوم تتوصل الى تحقيق التوازن بين المثل العليا وجنوح العالم الى تحكيم الآلة بالانسان ، وذلك بفضل اتحاد كلمة العناصر التي تؤلفها . وسيكون هذا شأن الاسلام ، كقوة فكرية ومعنوية وروحية : انه يحاول ان يتبين طريقه بين انقاض القوميات الآخذة بالانهيار ، وقد يميل تارة الى هذا المعسكر وطوراً الى ذاك . وقد يطول تردده وتتفاقم حيرته ، ولكن لا محيد له في النهاية عن اتخاذ قرار حاسم ، فيختط نهجه بنفسه ولا يحيد عنه بفضل اخلاصه لمثله .

الاسلام في المسألة الشرقية الجديدة

يواجه العالم اليوم « مسألة شرقية » جديدة تفوق سابقاتها اهمية وخطورة من جرّاء تبدل الاوضاع العالمية وقيام هذا الصراع الرهيب بين مثاليتين تطمح كلتاهما الى اخضاع العالم لسيطرتها .

والمسألة الشرقية قديمة العهد ، عُرفت في عهد الاغريق والرومان والصليبيين ، كما عُرفت في عهد هرقل وعهد باخوس . بيد ان مسألة استرداد النصارى لتركيا واقتسام تركة « الرجل المريض » لم تثر جدياً الا في العام ١٦٨٣ ، عندما تحطمت موجة الفتح التركي على اسوار فيانا . وقد ترتب على هزيمة الاتراك ، يومئذ ، ظهور الحركات القومية في البلقان ، ونهوض الشعوب البلقانية لاستخلاص استقلالها . وكان من نتيجة هذه الصليبية الجديدة ان اضطر العثمانيون الى الانكفاء والعود الى آسيا . وانتهى بهم الامر في القرن العشرين الى اضفاء الطابع العلماني على الدولة ، فألغيت الخلافة ، وصرفت تركيا النظر عن امبراطوريتها الاوروبية لتصير « دولة حديثة ذات مجلس وطني كبير »، وانشأ اتاتورك امة تركية على انقاض « الرجل المريض » .

ومعلوم ان آسيا الصغرى كانت بحكم موقعها ولا تزال جسراً يصل الشرق بالغرب . وقد اضحت « طرق اللآلي والحرير والافاويه » طرقاً للتجارة الحديثة ، كما كانت الحال في الماضي ، ترافق تبادلَ السلع

مبادلات" في الحقلين الثقافي والمثالي . يضاف الى هذا ان نفط القوقاز والموصل وايران وشبه الجزيرة العربية يجعل من البلقان والمتوسط الشرقي والشرق الادنى قبلة الانظار ، ومركزاً للترانزيت له ، اقتصادياً واستراتيجياً ، شأن زاد في اهميته الدولية تعاظمُ شأن الطيران . فطبيعي ، اذاً ، ان تعنى بامر هذه المناطق الدولتان الانكلوسكسونية والسوفياتية ، بعد ان عمدت كل منهما الى تطويقها ببلدان تابعة لها ، وان تطمح كلتاهما الى اخضاعها لسيطرتها الاقتصادية والسياسية وفرض مثاليتها عليها .

ان الشعوب الاسلامية في آسيا الصغرى والبلاد العربية وآسيا الوسطى مدعوة ، والحالة ما ذكرنا ، الى ان تحدد موقفها من المعسكرين على اساس صون استقلالها الطري العود . اما الدول البلقانية فقد اخضعها الكرملن لسيطرته باستثناء يوغوسلافيا التي تزعم الاخلاص للصوفية الشيوعية ، ولكنها ترفض تلقي التعليمات من موسكو . وتطمح اليونان الى الحفاظ على طابعها الفردي معتمدة على المساعدات الاميركية . وقد اختطت يوغوسلافيا لنفسها النهج ذاته . واذا نظرنا الى اوروبا نجدها مجزأة هي الاخرى ، فالحيز الشرقي منها ، بما فيه المانيا الشرقية ، قد ادمج في اوروبا - آسيا ، الخاضعة للنفوذ السوفياتي . ومقابل اوروبا - آسيا يقوم ، منذ التوقيع على ميثاق المحيط الاطلسي ، صرح" دولي جديد هو اوروبا - افريقيا ، تسانده اميركا . اما ركائزه فهي الامم الغربية وبقايا الامبراطوريات البريطانية والفرنسية والهولندية والبلجيكية . وفي الوقت الذي يلوح على الحضارة الغربية الهرمة انها واقفة على شفير الهاوية ، وانها ستعجز عن استرداد اعتبارها كقوة فاعلة بنّاءة ان هي لم تتدارك نفسها وتتغلب

على ضعفها – في هذا الوقت بالذات تتطور الممتلكات التي تؤلف الامبراطوريات الغربية تطوراً سريعاً ، ويطرأ عليها تحول اساسي يُسأل عنه ، ولو جزئياً ، عيّ الفكر الاوروبي الخلاّق .

وبين اوروبا – اسيا واوروبا – افريقيا تقف تركيا وايران والدول العربية في الشرق الادنى مشكّلة ، اليوم اكثر من اي وقت آخر ، النقطة التي تتجمع فيها او على مقربة منها القوى المتنازعة ، وتتسلل اليها الافكار الجديدة التي تنشرها هذه القوى .

تعرض هذه الحالة في وقت لا تزال فكرة الوطن طرية في اذهان الشعوب الاسلامية وقبل ان يتاح لهذه الشعوب ان تنظم نفسها .

عقيب الحرب العالمية الاولى نشأت في آسيا وافريقيا دول جديدة:

– في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢١ قامت دولة الافغان .

– في ٢٨ شباط ١٩٢٢ اخذت مصر بالنظام الملكي الدستوري .

– في ٢٨ تشرين الاول ١٩٢٣ اعتمدت تركيا النظام الجمهوري.

– في ١٥ كانون الاول ١٩٢٥ استقلت ايران بزعامة رضا خان .

– في العام ١٩٢٥ شهد العالم العربي مولد المملكة العربية السعودية .

وجاءت الحرب العالمية الثانية فعرقلت تنظيم هذه الدول . وعقيب هذه الحرب احرزت دول المشرق استقلالها ، وكانت عصبة الامم قد وضعتها تحت الانتداب على اثر الحرب العالمية الاولى .

أيمكن هذه الدول الطرية العود ان ترسخ قواعدها في الظروف التي تمر بالعالم ? من المشكوك فيه ان يتاح لها العمل بحرية ، وقد تجد نفسها مضطرة للحد من مطامحها ومثالياتها تحت ضغط حاجتها

الماسة الى العون المادي الخارجي ، هذا العون الذي لا سبيل الى الحصول عليه الا من احد العملاقين المتنافسين .

ان المسألة الشرقية المعاصرة يمكن تلخيصها بسؤال هو الآتي : لمن تكون السيطرة على الشرق الادنى ؟

سنعرض لامكانات كل شعب من الشعوب الاسلامية ذات العلاقة ، مشيرين الى بقاء فرنسا ، مادياً على الاقل ، بمعزل عن الصراع القائم في سبيل السيطرة على آسيا الصغرى ، والى ان لبريطانيا العظمى مصلحة حيوية في الابقاء على نفوذها في الشرق الادنى . اما الولايات المتحدة الاميركية فقد احرزت على حساب انكلترا في المحيط الهندي قواعد متينة .

اما روسيا السوفياتية التي تبنت سياسة القياصرة ، او خطوطها الكبرى على الاقل ، فانها لم تفعل حتى الان اكثر من تمهيد الطرق المؤدية الى هذا الشرق حيث سيكون الفصل في مصير العالم ، كما يستدل من القرائن والمقدمات . ولكن ظلها المخيف يتهدد البلدان التي تدفئها الشمس .

والصراع الذي نشهد بين العملاقين ليس مقصوراً على الحقل الاقتصادي ، بل يتعداه الى توجيه البشر روحياً واجتماعياً . وقد ادركت الكنيسة الكاثوليكية ان القيم التي انبثقت منها المسيحية والحضارة الغربية يتهددها خطر داهم ، فبادر الفاتيكان الى تحديد موقفه من التيارات التي تتجاذب العالم ، عندما اعلن البابا بيوس الثاني عشر في مطلع ١٩٥٠ ان الدولة لا يمكنها ان تبتلع الفرد ولا العائلة ، وان الكنيسة اقوى من ان تؤثر فيها المحن ذات الطابع الزمني الموقوت . وقد زعم بعضهم ان الفاتيكان يفكر في نقل وثائقه

الى مكان امين في حال وقوع ايطاليا تحت السيطرة السوفياتية. ومها يكن من امر فالثابت ان الكنيسة شجبت الشيوعية بمفهومها السوفياتي.

ان المثالية الاميركية والصوفية الروسية تتجابهان في كل مكان، فعلى البشر ان يختاروا، لان الدلائل لا تبشر بقرب الوصول الى حل وسط، فالروس لا يبدون استعداداً للتساهل، والشعوب الحرة لم تدرك بعد ان تعاونها فيما بينها هو السبيل الوحيد الى حماية مصالحها واستقلالها واقصاء شبح الحرب.

تقف الشعوب الاسلامية، اذاً، على مفـترق بسيكولوجي من تاريخها، في فترة هي من ادق الفترات. وقد نشأت مطامحها ومثاليتها في بيئة اسلامية بمقتضى قواعد اساسية مطلقة لا يمكنها التساهل بشأنها. وها هو الاسلام في الشرق الادنى وآسيا الصغرى يجد نفسه عرضة لتيارات مصدرها اوروبا - اسيا. ولا ريب في ان مقدرات الاسلام السياسية والدينية ستتأثر الى حد بعيد بالنهج الذي تختطه لنفسها تركيا والدول العربية. فهذه البلدان، بالاضافة الى ايران، ستكون اول اهداف المثاليات الاجنبية، وعلى خطاها سيوقع مسلمو افريقيا الشمالية خطاهم. وقد المعنا في فصل سابق الى ان تطور الاسلام تاريخياً وبسيكولوجياً جعل من الشعوب الاسلامية مجموعتين: مجموعة اسيوية واخرى متوسطية. وقد كانت هذه بمظاهرها الخارجية على الاقل وليدة الفتح العربي. اما الاسيوية فقد كانت وليدة التوسع التركي - المغولي. وتقيم ايران الصلة الروحية بين المجموعتين. فاذا اخذنا بهذه النظرية نجدنا مسوقين الى تقرير الواقع الآتي:

- في منطقة البحر المتوسط اسلامٌ، عربي الاتجاه، يؤلف جزءاً من

اوروبا – افريقيا ، ويضم فيما يضم تركيا المنفصلة تاريخياً عن الاتراك – المغول .

– في آسيا اسلامٌ اسيوي ، غير عربي ، يضم الطورانيين ومسلمي الشرق الاقصى ، وهو يجنح سياسياً نحو مسايرة اتجاهات اوروبا – آسيا.

ويُلاحظ ، على العموم ، ان القوميات الاسلامية في اوروبا – افريقيا تميل الى الافادة من المساعدة الانكلوسكسونية ، وان القوميات الاسلامية في اوروبا – آسيا تميل الى الافادة من المساعدة الروسية (باستثناء الهند) . وجدير بالذكر ان العناصر الاسلامية في اوروبا – آسيا (ما خلا الباكستان) لا تؤلف في الوقت الحاضر مجموعات قومية مستقلة . وقد يتمخض الفوران الاوروبي – الاسيوي عن جديد في هذا الحقل ، كما قد يسفر عن اندماج العناصر المذكورة في نظام لاديني بحيث تكون الصوفية السوفياتية دينها الحقيقي . ولما كانت ايران والافغان تؤلفان الصلة الجغرافية بين المجموعتين الاسلاميتين فقد استهدفهما ويستهدفهما ضغط روسي متزايد . الا ان هذا لم يمنعها من طلب المساعدة الاميركية .

ليس للاسلام الاسيوي ، في الظاهر ، نفسية اسلام المتوسط . فقد يؤكد بعض المسلمين ، عن حسن نية ، ان كل شيء في دينهم ينتهي بالحل المناسب على الصعيد الاسلامي . وهذا التأكيد خليق بالتقدير ، ولكن آسيا تحتفظ ، منذ ان كان البشر ، بطابع خاص . انها آسيا البوذيين والبراهمة ، وآسيا فلسفة لاو تسو وكونفوشيوش التي تقود الى صوفية الزهد المطلق بواسطة التأمل المستمر . « العمل شيء حسن وافضل منه الامتناع عن العمل » . بهذا يوحي حكماء الشرق الاقصى ، ولكن اذا كانت هذه الصوفية

تقود الافراد الذين بلغوا درجة عالية من السمو الروحي الى العزلة الرائعة ، المشوبة بالانانية الى حد مـا ، فلن يترتب عليها في بيئة السواد الجاهل سوى وقوع هذا السواد تحت تأثير الاوهام والسحر .

ان فلسفات الشرق الاقصى هي ، ولا شك ، ذات مفاهيم سامية ، ولكنها لا ترضي آسيـا المتعطشة الى مثالية اقرب منالاً ، تأخذ بعين الاعتبار حاجات العنصر المادية . لهذا يمكن ان ترحب آسيا ، ولو موقتاً ، بشيوعية من الطراز الروسي ، تفي بحاجات الروح والجسد معاً .

لا يمكن التنبوء بنتائج هذا الفوران . بيد ان الاديان الموحدة ، التي عجزت عن استمالة السواد الاسيوي ، تجد نفسها حيال مسألة بالغة الخطورة : ما عساه يكون موقف آسيا من النظريات الحديثة المؤلفة لخدمتها والمصوغة على صورتها ومثالها ؟ لقد هدى الاسلام العديد من ابناء الشرق الاقصى ، ولكن الموجة التي حملت الاسلام الى الشرق البعيد هي موجة التوسع التركي – المغولي ، وليست موجة الفاتحين العرب . وقد تأثر مسلمو آسيا ببيئتهم فكان لهم طابعهم الخاص .

في الغرب يقود تعاون الفكر والعمل الى استنباط الوسائل القمينة بتحسن مستوى الانسان . وهكذا يفعل الاسلام حيث لا مكان لدكتاتورية العقل ، ولكن الخضوع لمشيئة الله لا يقود الى الزهد ولا الى الجمود . ألم يعد النبي المؤمنين بجنة يجزون فيها خيراً على جهودهم ؟ فما تراه يكون مصير هذه النظرة الاسلامية الى الحياة اذا فرض التطور الاسيوي على العالم ايماناً جديداً ذا طابع مادي الى حد ما ؟ ان العرب الفخورين بعنصرهم وحضارتهم يخسرون كثيراً يوم تطغي المجموعة الاسيوية على البيئة الاسلامية التي لا

يستطيع العرب ان ينفكوا عنها .

من هنا كانت اهمية الشرق الادنى كنقطة واقعة بين اوروبا ـ آسيا واوروبا ـ افريقيا .

لقد بسطنا المسألة دون ان نتصدى لحلها ، لانه يعود الى المسلمين ، والمسلمين وحدهم ، ان يفكروا ويقرروا ، مستلهمين ايمانهم .

•

سندرس تباعاً اوضاع الشعوب الاسلامية في تركيا ، ودول المشرق ، والبلاد العربية ، وايران ، والافغان ، وهي الشعوب التي اهتدت في ظل الفتوحات العربية ، ثم اوضاع الشعوب التي حملت اليها الاسلام موجةٌ من التوسع التركي ـ المغولي بما فيها روسيا ، والهند التي ترك فيها هذا التوسع اثره العميق بالرغم من حرصها على طابعها الخاص . وسندرس اخيراً اوضاع الشعوب الاسلامية في المتوسط الغربي .

تركيا الحديثة

ترتب على خسارة الاتراك الحرب العالمية الاولى التي كانوا فيها حلفاء الالمان، خروجُ تركيا من اوروبا وانطواؤها على نفسها. وجاء يوم اشرفت فيه هذه الدولة على الانحلال. ذلك بان اميركا انبرت تشجع قيام دولة ارمنية، وراحت انكلترا تحرّض اليونانيين على اقتطاع ولاية ازمير، وابت ايطاليا الا ابقاء قواتها في سيواس واضاليا، وفكر نفر من رجال الدولة الفرنسيين، ككليمنصو، رغبةً منهم في القضاء على الخطر التركي قضاءً مبرماً، في انشاء مجموعة دويلات غير تركية في المنطقة الممتدة من طرابزون الى الاسكندرون، وذلك بتشجيع النزعات الانفصالية من ارمنية وكردية، وهو مشروع يفضي تحقيقه الى حصر الاتراك في الاناضول، ولكن «بريان» لم يتحمس للفكرة، ونهج سياسة مشبعة بالعطف على تركيا التي اعتمدت في دفاعها عن ذاتها على مساعدة حكومة موسكو.

في هذه المرحلة الدقيقة برزّ مصطفى كمال باشا الذي انفصل عن اقطاب حزب الاتحاد والترقي دون ان يتنكر لمنهاج الحزب، واستطاع، بعد توسيع هذا المنهاج، تأليب الاتراك على الاجنبي. برز في الظرف العصيب، وفرض نفسه ديكتاتوراً ليخرج من بين انقاض الامبراطورية العثمانية تركيا الجديدة.

ويلوح ان مصطفى كمال لم يشأ ، وهو يمضي قدماً في عمله الضخم ، ان يسند الى بلاده دورها التقليدي في العالم الاسلامي . ولو انه فكر في اعطائها هذا الدور لاعوزته الوسائل المادية . والملاحظ — وهنا وجه الغرابة — ان الشعوب ، في تطورها نحو الاخذ بفكرة الوطن ، ينتهي بها الامر الى اهمال الكليات ، وان الافكار تجنح في الحقل الروحي والعملي الى مسايرة النزعة الاممية او على الاقل الى القول بنظام اتحادي واضح المعالم . وتركيا هي احد الامثلة البارزة على ذلك .

من الوجهة الاسلامية العامة كان آخر ما سجلته تركيا الدولة المسلمة الوقائع الآتي بيانها :

في العام ١٩١٧ اطلق على الجيش العثماني في القوقاز اسم « جيش الاسلام » ، ووضع تحت امرة القائد الالماني الجنرال كريس فون كريشنشتاين ، وكان وثيق الصلة بقنصل المانيا في بندر بوشير Bender-Bouchir الحر « فاموس » الذي اقتطع مملكة حقيقية في سيزستان . وفي نيسان ١٩١٨ كفت بلاد الكرج (جيورجيا) واذربيجان عن النضال . اما ارمينيا التي عزلتها العاصفة فقد استمرت في المقاومة بقيادة الجنرال نازاربيكوف ، واتاح صمود الارمن في باكو حتى الخريف للنجدات البريطانية ان تصل في الوقت المناسب . وفي ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ اعلنت الهدنة على الراين . وفي الشرق انحسرت الموجة العثمانية وتبعثرت صفوف « جيش الاسلام » . وهكذا تبخر الحلم الجرماني — التركي بزحف اسلامي جديد باتجاه الهند .

وما ان اعلنت الهدنة حتى وقف مصطفى كمال باشا في وجه السلطة المركزية ، وندب نفسه للدفاع عن استقلال تركيا استقلالاً

تاماً ناجزاً . وكان احد منافسيه ، انور باشا ، قد اخذ على عاتقه بعث الحركة الطورانية في آسيا الوسطى ، ولكن لمصلحته الشخصية ، بعد ان سبق له في طرابلس الغرب ان قام بمحاولة جدية لاعادة النفوذ التركي، ولكن لحسابه الخاص. ودعم الروس حركة انور اقتناعاً منهم بانها تخدم مصالحهم ، بعد ما ضاع من الاتراك نفوذ الخلافة الديني . وما داموا قد تركوا هذا العامل الفعال يفلت من ايديهم ، فلمَ لا تقبض موسكو على الزمام ؟ يكفيها ان تختار رجلاً وتساعده في انشاء دولة ودعوة الاتراك ثم الطورانيين الى الالتفاف حوله . ومتى تم له ذلك لا يلبث سائر مسلمي العالم ان يحذوا حذوهم ، فيعلن رجل موسكو نفسه خليفة ، ويتولى مقدرات الاسلام برعاية الروس. هذا هو المشروع الذي ربما كان بالامكان تنفيذه اليوم بشكل آخر.

لم يكن للرجل ، الذي اختاره الروس – اي انور باشا – لتمثيل الدور الذي اختاروه له ، مكانٌ في وطنه تركيا ، فقرروا ان يجعلوا منه سلطان تركستان حيث كان السنوسيون قد اعدوا العدة لانشاء دولة ذات مركز ديني . وقد هبط انور تركستان ، وقدم اليه الروس المساعدة المالية اللازمة ، وجهزوه بالسلاح والذخيرة ، وما لبث ان انشأ نواة دولة بفضل دعاوة بارعة ضربت على وتر القوميات (النظام الاتحادي) ، الا انه ، وهو المغامر الجريء ، لم يلعب الورقة الروسية بامانة ، وخيّل اليه انه يستطيع ان ينسج على منوال مصطفى كمال ، فيعمل مستقلاً عن موسكو . وفي حزيران ١٩١٩ نزع القناع عن وجهه واحتل بخارى وسمرقند . وراوده حلم تيمورلنك ، فحسب نفسه قادراً على الاتصال بمسلمي تركستان الصينية عبر مضيق خيبر ، ولكنّ حكومة السوفيات بادرت الى حشد

قواتها في مضيق كوشك واسكاباد ، ولوحت بمساعدتها لامراء بخارى الذين عزلهم انور ، فاعلنوا العصيان ، وكان ان هزم انور وهلك في كمين نصب له .

وهكذا تبخر الحلم التركي بانشاء امبراطورية اسلامية في طوران ، واضحت الوحدة التركية والوحدة الطورانية منذ ذاك لفظتين لا تعنيان شيئاً . بيد ان تذكيرنا بمحاولة موسكو منذ ٣٤ عاماً لا يخلو من فائدة . فحركة الوحدة الطورانية قد تبعث يوماً بتشجيع من الروس كما سنرى عند درس اوضاع الاسلام الاسيوي ، هذا الاسلام الذي تحرر نهائياً من النفوذ والتأثير التركيين ، وقد يأتي يوم يجنح فيه بدوره الى تهديد « الوطن » التركي . ومن يدري ، فقد يكون تخوف تركيا من هذا الاحتمال احد العوامل التي تملي عليها موقفها الحالي . يضاف الى هذا ان تركيا لا يمكنها ان تهتم مباشرة بالاتراك المسلمين الذين تخلفوا في اوروبا ، مع العلم ان الاتراك في الخارج ينوف عددهم على عدد سكان تركيا الحالية ، وهم يؤلفون مجموعتين احداهما في البلقان والاخرى في روسيا . فاتراك المجموعة الاولى يتدفقون على آسيا الصغرى مندفعين مع تيار الهجرة الجارف ، ولكن تركيا لا تملك حق التدخل في شؤون محض محلية . اما اتراك المجموعة الثانية فكل تدخل من جانب انقره لمصلحتهم يصطدم بسياسة موسكو الحازمة .

يتضح مما اسلفنا ذكره ان هزيمة تركيا في الحرب العالمية الاولى واختناق « جيش الاسلام » ، جيش انور باشا ، قد اضطرا الاتراك ، من الوجهة الاسلامية ، الى الانطواء على انفسهم لينصرفوا الى تنظيم دولتهم الجديدة وليدة ذيول الحرب . واتخذ هذا الانطواء شكله

الصريح بنقل العاصمة من استمبول الى انقره ، وبتصدي مصطفى كمال لمحاربة كل فكرة تقول بالتوسع خارج الحدود على اساس المثالية الدينية. وفي ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٣ الغى المجلس الوطني الكبير في انقره السلطة العثمانية متهماً اياها بالتآمر مع الاجنبي ، واعلن الجمهورية ، وجعل من السلطان نفسه الرئيس الديني الاعلى المسلمين . وفي ٦ آذار ١٩٢٤ الغيت الخلافة بقرار من المجلس الوطني الكبير ، ذو الاكثرية العلمانية ، وعلى الاثر بادر السلطان الى مغادرة تركيا في سفينة انكليزية . وكما زالت الخلافة العربية في العام ١٥١٧ زالت كذلك الخلافة العثمانية في العام ١٩٢٤ .

وعلى الجملة « قـامت عظمة مصطفى كمال باشا (اتاتورك) على انشائه امة منظمة على انقاض الامبراطورية العثمانيـة المنهارة ، امة من طراز امم الغرب. وسرعان ما احتلت الجمهورية التركية مركز الصدارة بين الامم الاسلامية بفضل الاصلاحات الاساسية الشاملة التي عجلت تطور البلاد[١] . »

ومن هذه الاصلاحات جعلُ الدولة ذات طابع علماني شامل ، والغاء الخلافة، وتوحيد التعليم وجعله علمانياً ، والغاء المحاكم الشرعية، وسن قانون مدني تركي مستوحى من القانون السويسري، وحظر تعدد الزوجات ، وسن قانون جزائي مستوحى من القانون الايطالي ، وسن قانون للتجارة مستوحى من القانون الالماني . ولم يكن الطريق ممهداً امام عجلة الاصلاح ، فقد تسلح اتاتورك بارادة فولاذية واضطر

١ ليوتنان كولونل تريشه: « مدخل الى معرفة الاسلام » صدر في العام ١٩٤٩.
Lieutenant-Colonel Truchet, *Initiation à la Connaissance de l'Islam*, Paris.

حياناً للجوء الى القسوة، ولم يتردد في اعدام الذين قاوموا الاصلاح، اغير مستثنٍ رجال الدين .

ولكي يعطي الاصلاح طابعه الشعبي، حظر الاعتمار بالطربوش وجعل الاعتمار بالقبعة الزامياً (نيسان ١٩٢٤). وفي العام التالي حل الطرق والزوايا، واعتمد الروزنامة الغريغورية . وفي العام ١٩٢٨ استبدل من الحروف العربية الحروف اللاتينية، ثم ألغى اللغة العربية من مناهج التعليم، وحتم الآذان بالتركية . وفي العام ١٩٣٢ امر بترجمة القرآن الى اللغة التركية .

واجتهد اتاتورك في القضاء على بقية من نفوذ احتفظ بها الاجانب في البلاد . فبعد انتصاره على اليونان (١٩٢٠ — ١٩٢٢) اعترفت معاهدة لوزان (١٩٢٤) بالجمهورية التركية . واستكملت تركيا معالم تحررها بالغاء الامتيازات الاجنبية . وفي العام ١٩٣٦ اعترف مؤتمر مونترو بسيادة تركيا المطلقة على المضايق . وفي هذه الاثناء استرد الجنرال كاظم قره بكير ارمينيا وارضروم، تاركاً للروس جمهورية ارمينيا الصغيرة في اريفان . وفي العام ١٩٢١ تنازلت فرنسا المؤيدة للنظام التركي الجديد عن حقوقها في كيليكيا (ارمينيا الصغرى) ووافقت على ان يكون الخط الحديدي « بغداد باهن » حداً فاصلاً بين تركيا وسوريا (بين حلب ونصيبين — القامشلية) ، ثم تنازلت عن سنجق الاسكندرون الذي كانت سوريا تطالب به .

وهكذا صفّى مصطفى كمال لمصلحته حساب المسألة الشرقية وتركة « الرجل المريض » . وتوصل في العام ١٩٣٣ الى انشاء الكتلة البلقانية . وبعد اربعة اعوام عقدت تركيا وايران والعراق

والافغان ميثاق سعد آباد . وقد كان لانتصاره الباهر على اليونانيين ولنجاحه في الحقل الدبلوماسي تأثيرهمـــا في دعم مركزه وتقوية نفوذه ، فأمل العديد من مسلمي العالم بعث قوة الاسلام على يده ، ولكن اتاتورك خيّب آمالهم ، فحركة الوحدة التركية التي جالت في رأس عبد الحميد ثم ولّدت حركة الوحدة الطورانية قد توارت مع انور باشا في صحاري تركستان . امـا حركة الوحدة العربية التي نمت بعد الحرب العالمية الاولى ، فقـد انبرت لاحباط كل محاولة تهدف الى ايلاء تركيا ، مجدداً ، زعامة العالم الاسلامي . وجاء الغاء الخلافة ، وفي اعقابه الاصلاحات التي لم توفر الدين نفسه ، فوضع حداً لتفاؤل المتفائلين .

كان مصطفى كمال رجلا حكيماً ، دال على بعد نظر بصرف اهتمامه الى ابراز القوى البنـــاءة في الامة التركية والعمل على انمائها . كان عليه ان يشيد الدولة العلمانية وان يحرر بلاده من آخر أثر للنفوذ الاجنبي ، ليتسنى له ، بفضل السياسة الموجهة وتدابير التأميم ، النهوض بالاقتصاد القومي على اسس سليمة . ولا ريب في ان ما حققه رجل تركيا الحديثة يجعل منه احـــد عظماء التاريخ المعاصر . ويمكن القول ان تركيا ، كروسيا في عهد بطرس الاكبر ، هي مثـال حي لما تستطيعه ارادة الزعيم القادر ، فقـد قفزت الى مصاف الدول الحديثة بقيادة مصطفى كمال ، متغلبة برجلها الفذ على الصعاب التي اعترضت سبيلها .

وجدير بالذكر ان روسيا التي زينت لانور باشا القيام بحركته في تركستان عادت بعد اخفاق هذه الحركة فدعمت تركيـا ضد اليونان التي كانت تعتمد على الانكليز . وبينما كان هؤلاء يشجعون

الحركة العربية ، كان مصطفى كمال يلعب لعبته السياسية التي مكنته من اعادة بناء الاستقلال الوطني على اسس سليمة . ولا بد من الملاحظة ان التطور التركي كان في الاصل تطوراً ذا طابع قومي اكثر منه حركة موجهة ضد الاجانب . وئن يكن مصطفى كمال قد استخدم التكنيك الغربي في انشاء دولة عصرية الطراز ، فقد حرص على جعل هذه الدولة منسجمة مع تقاليد الامة التركية . ويمكن القول ان اتاتورك العلماني لم يبتعد عن الحدود التي رسمتها السنة والتقليد الاسلاميان[١] .

ولا بد من الملاحظة كذلك ان التطور التركي كان ضد العرب اكثر منه ضد الدين . فاللغة العربية هي لغة القرآن . وقد استغل العنصر العربي التوسع الاسلامي ، ففرض سيطرته ، وتقلصت هذه السيطرة بعد ضياع الخلافة من العرب . اما نفوذ هؤلاء فانه لم يتقلص الا بمقدار ، لان التعمق في العلوم الدينية كان هنا بمعرفة اللغة العربية ، لغة القرآن . ولما كان العرب قد حاربوا الاتراك في النزاع العالمي الاول ، فقد حرص زعيم تركيا الحديثة على تحرير الدولة من نفوذهم الروحي ، بمحاربة الثقافة العربية ، وهي ثقافة دينية في جوهرها ، فكانت علمانية الدولة . ولعل هذه الخطوة الجريئة قد وجدت لها حافزاً في الاتجاه التركي - المغولي القديم نحو اخضاع الدين للدولة . اما الشعور الديني نفسه فيمكن الجزم

١ كنا في استمبول عندما جعل اتاتورك الاعتمار بالقبعة الزامياً . وقد رأينا العديد من المؤمنين يحتالون على القانون فيضعون القبعة فوق الطربوش والعمامة . واكتشف مصطفى كمال اللعبة ، ولكنه اغضى عنها.

بانه لم يمس ، وان الجمهورية العلمانية فتحت ذراعيها الاسلام مشترطة على رجال الدين الا يعترضوا عجلة الاصلاح .

مما لا ريب فيه ان مصر تمتعت دائماً في العالم الاسلامي بمركز ممتاز بفضل ايمان علمائها وتبحرهم ، ولكن النفوذ الفعلي كان لتركيا. ذلك بان الامبراطورية العثمانية كانت في نظر المسلمين الحصن الزمني الذي تقف عند اسواره موجة التوسع المسيحي. وفي عهد السلاطين كانت صلاة الجماعة تقام في معظم مساجد العالم الاسلامي باسم السلطان الخليفة . وبعد ان منيت الامبراطورية العثمانيـة بتلك السلسلة من الهزائم الساحقة واحرز مصطفى كمال الملقب بالغازي انتصاراته الباهرة ، ابتهج العالم الاسلامي بهذه الانتصارات واكتشف في رجل تركيا الجديدة اول زعيم مسلم يقف في وجه الدول الاوروبية . وقد تقبل الرأي العام الاسلامي فتوحات الغازي قبولاً حسناً (باستثناء بعضها كما تقدم معنا) لانها ترمي الى بعث تركيا امة قوية ، واولى الدول الاسلامية الحديثة .

يقول « بلتيغران » في كتابه « الاسلام في العالم » انه يمكن ان يرد الى نجاح حركة مصطفى كمال الحركات السياسية الاستقلالية التي قامت في البلاد الاسلامية الاخرى كمصر وتونس والعراق والهند وشبه الجزيرة العربية . ومهما يكن من امر فلا جدال في ان ما قام به رجل تركيا قد اضفى على التطور الاسلامي معنى جديداً . واذا سلمنا بوجود شيء اسمه « الجمود العربي » ناشىء عن التزمت والتشبث باهداب التقاليد ، فيبقى ان عمل اتاتورك قد اقنع المفكرين في العالم الاسلامي بان انشاء دول حديثة يتطلب الاخذ باسباب التجدد ، وجعلهم اكثر تفهماً للمبدإ الغربي القائل بفصل الدين عن الدولة ،

واوفر استعداداً لتقبل هذا المبدإ واعتباره ضرورياً لانشاء « وطن » بمفهوم الاوطان الحديث . وشعرت الشبيبة بوجوب فتح مغالق الحضارة الغربية فتتسلح بثقافة علمية وعملية من شأنها التعجيل بتحرير الشعوب الاسلامية .

ولئن يكن بعض علماء الشرع نظروا الى اتاتورك ، ليس باعتباره المهدي ، ورجل الساعة ، بل « باعتباره الشيطان بصورة انسان ، تنكر للدين وللقرآن ، وتخطى التقاليد وقاد شعبه – بعد ان حرره من سيطرة الاجانب – على طريق العلمانية مرتكباً بذلك ما يستحق اللعنة » ، ولئن يكن بعض المهووسين قد حسبوا الثورة الكمالية انتصاراً للفكر الاوروبي وهزيمة الاسلام ، فان كثرة المسلمين قد ادركت ان كل شيء سينتهي ، على الصعيد الاسلامي ، الى ما فيه خير الاسلام، وان المهم هو التحرر من السيطرة الاوروبية وانشاء دولة اسلامية مستقلة وقوية . ومن هنا كان ظهور الجمهورية العلمانية التركية حدثاً بارزاً ونقطة تحول خطيرة في تطور الاسلام .

لم تتح الحوادث لتركيا الجديدة الفرصة الكافية لتوطيد اقدامها على نحو ما أمّل معظم المسلمين . فقد بذل عصمت اينونو ، الذي خلف اتاتورك في رئاسة الدولة، قصارى جهده في اكمال ما بدأه سلفه ، ولكن الحرب العالمية الثانية ، التي لزمت فيها تركيا الحيدة ، قد جعلتها في شبه عزلة ، يداريها المتحاربون تارة ويتوعدونها اخرى . وقد قصرت نشاطها في النزاع على تمثيل دور محض سلبي ، غير مكترثة لمصير الدول البلقانية والدول الاسلامية في الشرق ، مما افقدها بعض نفوذها في دنيا الاسلام ، مع العلم انه لم يكن في وسعها ان تفعل غير ما فعلت .

وقد القى الخطر الروسي ، مذ ذاك ، على عاتق الاقتصاد التركي الآخذ بالنمو ، اعباء مالية وعسكرية باهظة . وفي الحقل الداخلي طرأ على الوضع الذي خلفه اتاتورك تبدل اساسي ، فقد وصل الى الحكم ، بعد انتخابات ١٩٥٠ ، حزبٌ غير متحمس للدكتاتورية الكمالية ، ورافقت هذا الحدث انتفاضة دينية ترمي الى اعادة بعض الامتيــازات الى الدين . اجل ، سجل العام ١٩٥٠ تطوراً جديداً . فمصطفى كمال والزعماء الذين اخلصوا لرسالته قد انشأوا جمهورية علمـــانية في قلب آسيا الصغرى ، ولكن الانتخابات اسفرت عن فوز الحزب الديموقراطي فاحرز ٣٥٣ مقعداً في البرلمان تمثل ٤٣٠٠٠٠٠ صوت ، واحرز الحزب الجمهوري (حزب اينونو) ٥٥ مقعداً تمثل ٣٣٠٠٠٠٠ صوت . وهكذا انتقل الزمام من يد الى يد . وقد اخذ رئيس الدولة الجديد جلال بايار بعين الاعتبار اماني الشعب الدينية . فبعد ثلاثين عاماً من الغاء الخلافة سمحت السلطات الجديدة للمسلمين الاتراك بان يؤذنوا بالعربية ، وباستعمال اللغة العربية قراءة وكتابة بعد ان كان استعمالها محظوراً حتى في المساجد . واتخذ النظام الجديد من التسامح شعاراً له باسم العلمانية . وهكذا استمال الحزب الديموقراطي رجال الدين بعد ان قاطعوا السلطات الزمنية طيلة ثلث قرن . الا ان هذا لم يمنع جلال بايار وحكومته من اتخاذ تدابير معينة ضد بعض الطرق كالنقشبندية والتيجانية (١٩٥١) .

وجدير بالذكر ان العناصر غير التركية كالارمن والاكراد لم تلق السلاح بالرغم من تدابير القمع الشديدة . وقد سبق لنا وتحدثنا عن الارمن الذين لم يوآتهم الحظ الذي آتى اليهود ، فما استطاعوا انشاء وطنهم القومي المستقل ، وكل ما توصلوا اليه هو انشاء اريفان

او ارمينيا السوفياتية . اما الاكراد فقد اكرهوا على التسليم والطاعة بعد ان كانوا قد تقدموا من عصبة الامم والحلفاء بمطالبهم القومية (انشاء وطن كردي يمتد من درسيم الى الاسكندرون) . وبقيت معلقة المسألة الكردية بوجه عام (اي مصير اكراد تركيا والعراق وايران)[١]. وثمة اقليات مسيحية واخرى اسلامية منشقة تحتفظ في الدولة التركية الحديثة بطابعها الخاص . فتركيا الحديثة التي وحدها اتاتورك لا تخلو ، والحالة ما ذكرنا ، من خميرة قلاقل واضطرابات تهدد السيادة القومية ، ويمكن ان تستغلها الدعاوات الاجنبية ابرع استغلال .

ان تركيا هي جزء من آسيا الصغرى . ويشاء التاريخ ، الذي يأبى الا ان يعيد نفسه ، ان يكون احفاد اولئك العثمانيين ، الذين انهزموا في الماضي امام جحافل المغول ليحطوا رحالهم في الاناضول ، مهددين اليوم بطغيان الموجة الاسيوية . لقد غلب على الاتراك — وهم من اصل اسيوي — الطابع المتوسطي البارز في سماتهم وطراز معيشتهم ونموهم الفكري ومصالحهم السياسية والاقتصادية . وهذا الواقع لا يجهله زعماء تركيا الحديثة ، وقد رأيناهم ينحازون الى المعسكر الغربي ، مع العلم ان تركيا مرتبطة مع بريطانيا العظمى منذ ١٩٣٦ بميثاق المساعدة المتبادلة . وفي العام ١٩٤٨ طلبت حكومة انقره من الولايات المتحدة الاميركية ان تؤمن للجيش التركي حاجته من السلاح والتجهيزات . وبعد عامين طلبت قبولها عضواً في

١ مسعود فاني بك : « المسألة الكردية » .
Massoud Fani Bey, *La Question Kurde*.

حلف المحيط الاطلسي ، ثم انشىء محور تركي - يوناني ضمن اطار هذا الحلف . وفي اواخر ١٩٥١ تبنت تركيا واليونان مشروع الدفاع عن الشرق الاوسط ، وارسلت حكومة انقره فرقة تركية الى كوريا لتحارب فيها وقوات الامم المتحدة جنباً الى جنب .

تريد تركيا ان تواجه الاتحاد السوفياتي في الحرب وهي مطمئنة الى مؤخراتها . ومن هنا كان اهتمامها البالغ في ان ترى دول الشرقين الاوسط والادنى اعضاء في حلف المحيط الاطلسي . وواضح ان مصاعب بريطانيا العظمى في ايران ومصر من شأنها ان تعوق حل هذه المسألة ، وان مجرد زوال هذه المصاعب لن يزيل ما في النفوس من ضغائن ومخاوف .

ولا ريب في ان للخطى التي خطتها تركيا في ميدان السياسة الخارجية معنى عميقاً ومغزىً بعيداً ، ولا ريب كذلك في انه يترتب عليها نتائج خطيرة لانها تربط مقدرات الاتراك بمقدرات اوروبا - افريقيا في وقوفها بوجه اوروبا - آسيا . يضاف الى هذا ان تركيا هي الدولة الاسلامية الاولى المستقلة في منطقة البحر المتوسط التي تواجه الاسلام الطوراني المعادي للعروبة والتي تقدم ، بمحض رضاها ، على ضم جهودها الى جهود الحضارة الغربية الرامية الى تنظيم الدفاع المشترك . وهذا الموقف يقفه الاتراك سيكون له اثره في توجيه سياسة سائر المسلمين في منطقة البحر المتوسط . ويمكن القول ان ما اتخذته اخيراً حكومة انقره من خطى في مصلحة العروبة قد اكسبها مجدداً عطف الدول العربية . ومن يدري ، فقد يفكر الاتراك يوماً بدعوة هذه الدول الى الانتظام في ميثاق متوسطي يكون عملياً اكثر قيمة من ميثاق سعد آباد .

في الشرق الادنى : سوريا ولبنان

الشرق الادنى

الدول العربية في الشرق الادنى هي سياسيـــاً وليدة انهيار الامبراطورية العثمانية عقيب الحرب العالمية الاولى (١٩١٤–١٩١٨). وقد اغفل التقسيم المصطنع ، الذي اختص كل دولة برقعة من الارض ، الضرورات الجغرافية ، واماني الشعوب من قومية ودينية .

حتلت القوات البريطانية والفرنسية سوريا ولبنان في الثامن من تشرين الاول ١٩١٨ . وبعد احد عشر شهراً وضعت عصبة الامم البلدين تحت الانتداب الفرنسي الذي جعل منهما اربع دول : سوريا ، لبنان ، بلاد العلويين ، جبل الدروز . وقد اكتسب لبنان قبل جاراته صفة الدولة الشرعية بموجب دستور اعلن في ٢٣ ايار ١٩٢٦ . وبعد ست سنوات نالت سوريا دستورها (١٤ ايار ١٩٣٠) واضحى كلا البلدين جمهورية برلمانية مستقلة . اما بلاد العلويين وجبل الدروز فقد اعتبرتا حكومتين تتمتعان باستقلال ذاتي ، على رأس كل منهما حاكم فرنسي يعاونه مجلس تمثيلي .

وكان العراق (بلاد ما بين النهرين) والاردن (دولة محدثة) وفلسطين قد وضعت تحت الانتداب البريطاني . وقد جاء هذا التوزيع مخيباً لآمال العرب الذين كانوا يطمحون الى انشاء دولة جديدة تضم البلاد العربية المنسلخة عن الدولة العثمانيـــة ،

كخطوة اولى نحو بعث السيطرة العربيـة في العالم الاسلامي ، هذا الحلم الذي شجعه – ان لم يكن قد اوحى به – الكولونيل لورنس الذي حمل لواء هذه النهضة . وكان على انكلترا ان تفي بتعهداتها للعترة الهاشمية بشخص عميدها الشريف حسين الذي ألّب الحجاز على العثمانيين . لهذا يمكن القول ان وراء الاحداث التي كان الشرق الادنى مسرحاً لها خلال الاعوام الثلاثين الاخيرة حالةُ العرب النفسية ، ونشاط الانكليز العلني ، او السري ، ضد الامتيازات التي احرزتها فرنسا بحكم دورها التاريخي في المشرق .

سوريا ولبنان بين ١٩١٩ – ١٩٣٩

ما ان ظهرت حركة الوحدة الاسلامية (حركة السلطان عبد الحميد) المؤاتية ، الى حد ما ، الحركة الجرمانية ، حتى انبرى الانكليز لتحريض العرب على الاتراك ، مشجعين بذلك نمو حركة الوحدة العربية . ومنذ العام ١٨٩٠ ظهرت اولى بوادر هذه الحركة :

– مقاومة سياسة عبد الحميد .

– صدور مجلة « يقظة الامة العربية » لصاحبها نجيب عازوري (١٩٠٥) .

– نشر بيان « اللجنة القومية العربية » ، وقد وجهته الى الدول العظمى (١٩٠٦) .

– التئام المؤتمر العربي في باريس (١٩١٣) .

وفي هذه الاثناء كان الامير شكيب ارسلان يقوم في جنيف على رأس اللجنة ، السورية – الفلسطينية – المغربية بدعاوة منظمة

لمصلحة العرب والعروبة .

كانت مكة مركز هذه الحركات . وعند نشوب الحرب العالمية الاولى غذّى الحلفاء، ولاسيما انكلترا وفرنسا، نقمة العرب على العثمانيين . وفي ٢٦ تشرين الاول ١٩١٥ عقدت انكلترا مع الشريف حسين بن علي معاهدة سرية تعهدت فيها بمساعدته مالياً ومعنوياً . وفي الوقت نفسه التحق بخدمة الشريف الكولونيل ويلسن والكولونيل لورانس ، بينما التحق جون فيلبي بخدمة ابن سعود في نجد .

وفي حزيران ١٩١٦ شهر الشريف حسين السلاح في وجه الاتراك . وبعد ان اعلن استقلال الحجاز وانفصاله عن الدولة العثمانية ، اعلن نفسه ملكاً (ملك العرب) . وعلى الاثر اوفدت فرنسا الى الحجاز بعثة الكولونيل بريمون الذي كان على خلاف مع لورانس . وفي العام ١٩١٩ بذلت فرنسا وانكلترا وعوداً صريحة للعرب غداة دخولهم دمشق تتقدمهم فصائل « بيزاني » التابعة لبعثة بريمون فضلاً عن الانكليز.

ولكن فرنسا وبريطانيا العظمى كانتا قد عقدتا اتفاقات سرية (١٩١٦) اشتملت على خطة لاقتسام البلاد العربية فور انتهاء الحرب . وقد كان ثاني هذه الاتفاقات (اتفاق سايكس – بيكو) الاساس الذي بنيت عليه معاهدة سان ريمو (١٩٢٠) ، وهي المعاهدة التي فرضت على العرب الشروط الآتي بيانها :

– الاعتراف بحسين بن علي ملكاً للحجاز .

– الاعتراف بانتداب فرنسا على سوريا ولبنان وبلاد العلويين وجبل الدروز ، وبانتداب انكلترا على العراق .

– في فلسطين يُحتفظ برقعة دولية ينشأ عليها ، فيما بعد ، الوطن

اليهودي في النطاق الذي حدده تصريح لورد بلفور (٢ تشرين الثاني ١٩١٧)، على ان يوضع سكان فلسطين العرب تحت الحماية البريطانية .

ـ احدثت دولة الاردن ووضعت تحت الحماية البريطـانية ، واحتفظ بها لعبدالله احد انجال الحسين بن علي .

وهكذا ضمنت انكلترا لنفسها قاعدة تراقب منها ما يجري في فلسطين وتغطي طريق الهند عبر البحر الاحمر ، واستطاعت في الوقت نفسه ارضاء العترة الهاشمية .

وقد وضعت معاهدة سان ريمو موضع التنفيذ دون ابطاء ، ولكن تنفيذها اصطدم باكثر من عقبة ، كان الامير فيصل قد دخل دمشق ، وما لبث ان اعلن نفسه ملكاً ، معتمداً على تأييد انكلترا وعلى ما حسبه موافقة ضمنية من جانب فرنسا . وعلى الاثر اتهمه الجنرال غورو ، المفوض السامي الفرنسي في سوريا ولبنان ، باثارة الاضطرابات ضد فرنسا المشغولة بالنزاع بينها وبين تركيا في كيليكيا . وبحجة وضع حد لهذه اللعبة ، زحف الجيش الفرنسي الى دمشق واخرج منها الملك الذي عوّض عليه الانكليز بان قدموا اليه عرش العراق .

اثارت هذه الحوادث ، مضافاً اليها معاهدة سان ريمو ، نقمة العالم العربي ، فالف فريق من المشتغلين بالسياسة العربية اللجنة السورية — الفلسطينية (مركزها القاهرة) . وسرعان ما وجهت هذه اللجنة معظم نشاطها ضد فرنسا . ذلك بان الانكليز كانوا قد حققوا للعرب بعض امانيهم ، فوجود الهاشميين في الحجاز والعراق والاردن هو خطوة لا بأس بها نحو تحقيق الوحدة العربية المنشودة .

ولكن الموقف تبدل في البلاد العربية منذ ١٩٢٠ . فقد برم العرب بالحسين بن علي اعتقاداً منهم انه صنيعة الانكليز . ذلك ان

المسلمين عموماً ، والعرب على الاخص ، ان هم استخدموا غير المؤمن ، فانهم لا يتحملون السيطرة الاجنبية الا بمشقة . لهذا رأينا ابن سعود زعيم وهابي نجد (ويمكن ان نصفهم بانهم بروتستنت الاسلام) يقف في وجه الحسين عندما رشح ملك الحجاز نفسه خليفة بعد الغاء الخلافة العثمانية . وقد تغلب الوهابيون على الملك الهاشمي بالرغم من مساندة الانكليز له ، واجتاحوا الحجاز . فتنازل الحسين لنجله علي الذي اضطر بدوره للتنازل عن العرش في العام ١٩٢٥ عقيب سقوط المدينة المنورة بايدي الوهابيين . وهكذا تألفت العربية السعودية من نجد والحجاز . اما الملك حسين فقد توفي في جزيرة قبرص .

وبخروج فيصل من دمشق والملكين حسين وعلي من الحجاز اصيبت هيبة الهاشميين بنكسة شديدة ، وباتت الوحدة العربية حلماً بعيد التحقيق ، وخاب ما أمله الكولونيل لورانس . بيد ان ما حدث لم يؤثر في مركز بريطانيا العظمى . ففي العراق فيصل ، وفي شرق الاردن عبدالله ، وكلاهما نجل الحسين ، وفي بلاط ابن سعود مستشار يدعى السر جون فيلبي . يبقى ان وجود فرنسا في سوريا ولبنان ليس مما يسهل للعاملين تحقيق مشروع لورانس . ومن هنا كان اهتمام الهاشميين المتزايد بدول المشرق ، وسعيهم الحثيث في سبيل بعث مشروع الوحدة العربية تارة باسم سوريا الكبرى (الاردن – سوريا) ، وطوراً باسم « الهلال الخصيب » (سوريا – العراق) .

تقدم معنا ان كليمنصو اعد عقيب انتهاء الحرب العالمية الاولى مشروعاً يقضي بحصر الاتراك في الاناضول ، على ان يفصل بينهم وبين الشرق خط يمتد من طرابزون حتى الاسكندرون ، تنتشر عليه اقوام غير تركية من مسيحية ومحمدية ، فيكون للارمن جمهوريتهم بين

ارضروم واضنه (كيليكيا ، وارمينيا الصغرى[١]) ، ويتمتع الاكراد باستقلال ذاتي في وطنهم (كردستان)، ويؤلف الاشوريون ـ الكلدان من ابناء ايران مستعمرات عسكرية بين دجلة والفرات[٢] ، وسطها الزراعي في القامشلي والحسكة ، وينضم اليهم العديد من الاكراد بزعامة ملكيصادق ، وفي المشرق تؤمن الحماية اللازمة الاقليات المسيحية والمحمدية (كالعلويين والاسماعيليين والدروز) ليتسنى لها الوقوف في وجه الاتراك والعرب ، عند الاقتضاء[٣] .

ولكن رؤساء الحكومة في فرنسا يتبدلون باستمرار وتتبدل تبعاً لذلك اتجاهات السياسة الخارجية . فلما خلف بريان كليمنصو ضرب صفحاً عن مشروع سلفه في وقت كان انتصار مصطفى كمال على اليونانيين الذين يساندهم الانكليز يوحّد كلمة الاتراك ويهيب بهم للوقوف في وجه الاجنبي . وعلى الاثر عقد فرنكلان بويون مع حكومة انقره اتفاقاً اعادت فرنسا بموجبه الى الدولة التركية الجديدة منطقة كيليكيا ، متخلية بذلك عن مشروع « ارمينيا الكبرى » ، مما ادى الى هجرة ارمنية كبيرة الى سوريا ولبنان . وصرفت فرنسا النظر عن اثارة المسألة الكردية ، وتخلت عن سياسة

١ في العام ١٨٦٠ دعم نابوليون الثالث عسكرياً الجمهورية الارمنية زيتون ، شمالي مرعش .

٢ حارب الاشوريون ـ الكلدان الاتراك في الحرب العالمية الاولى بقيادة الجنرال زازار بيكوف وامنوا الاتصال بين الروس في ارضروم والانكليز في بغداد (اغابطرس وملكيصادق) ودافعوا عن باكو . ثم حاربوا في سوريا في صفوف الفرنسيين .

٣٠ بيار ريدان في « كيليكيا والمسألة العثمانية » .

Pierre Redan, *La Cilicie et le Prolème Ottoman.*

حماية الاقليات . وقد حداها الى اعتماد هذا النهج رغبتها في انشاء تحالف فرنسي - تركي ، ولكن هذه الخطوة لم تتم ...

وفي هذه الاثناء كان الجنرال غورو ينشىء « لبنان الكبير » بسلخ سهل البقاع عن ولاية دمشق وضمه الى لبنان. وقد ادى هذا التدبير - وكان الغرض منه فتح مجالات التنفس امام بيروت التي يجثم على صدرهـا الجبل - الى تفاقم نقمة الدمشقيين على فرنسا . وكان من عواقبه الخطيرة ان جعل من لبنان الماروني - حيث كان المسيحيون يؤلفون الكثرة - لبنان كبيراً ذا كثرة اسلامية . وقد انضم لبنان ، بشكله الجديد ، الى مصف الدول العربية في المشرق .

وخلال الفترة الممتدة بين الحربين العالميتين عمل الدمشقيون جاهدين في سبيل توسيع رقعة الوطن السوري ، كما عملوا في سبيل الاستقلال والتحرر من سلطة المفوض السامي الفرنسي . وقد الحقت بدمشق مدينة طرابلس[١] ، وهي ميناء على المتوسط ويبدأ فيها الخط الحديدي العادي المؤدي الى الداخلية . وهكذا عزل لبنان عن بلاد العلويين . وحاولت دمشق ضم سنجق الاسكندرون ، وكان خاضعاً لنظام خاص ، ولكن محاولتها اصطدمت بمعارضة الاتراك الذين ظفروا بالسنجق ، في النهاية ، كجزء من اراضي الوطن التركي .

سوريا ولبنان بين ١٩٣٩ و ١٩٥٢

لم تذهب جهود السوريين سدى . ففي ٩ ايلول ١٩٣٦ عقدت

١ لم تلحق طرابلس بسوريا . - المعرب .

فرنسا وسوريا معاهدة اعترفت فيها حكومة باريس باستقلال الجمهورية السورية الموحدة (فقد الحقت بلاد العلويين وجبل الدروز بدمشق). وفي ١٣ تشرين الثاني من العام نفسه عقد لبنان - لم يبق لبنان الكبير موضع بحث - مع فرنسا معاهدة تحالف على اساس كونه دولة مستقلة ذات سيادة . ولكن البرلمان الفرنسي لم يبرم المعاهدتين ، فادى هذا الرفض الى تبلور الاضطراب الذي ما برح يتفاقم منذ ان كان الاحتلال (١٩١٩) . وقد بذلت فرنسا في بلاد المشرق مجهوداً ضخماً كان من نتائجه النمو المالي والاقتصادي وتنظيم المواصلات الخ ... فضلاً عن نشر التعليم والعناية بالصحة العامة . ولكن السوريين كانوا يأخذون عليها ، وعلى الحلفاء عموماً ، تسببهم في خراب سوريا . ذلـــك بان الموانىء السورية والمدن الكبرى الواقعة على ابواب الصحراء كحلب ودمشق كانت تؤمن منذ اجيال حركة الترانزيت التجارية بين الشرق والغرب . وقد ادى انشاء حدود جديدة وما تطلبه من قيود جمركية ، كما ادى ظهور نقد خاص مرتبط بالفرنك الفرنسي بدلاً من الليرة الذهبية التركية الرائجة في آسيا الصغرى ، الى الحد من التجارة بشكلها القديم . ناهيك باندثار الصناعة اليدوية التي كانت تغذي القوافل بعد ان غزت الاصناف الاوروبية المصنوعة اسواق المشرق . واجتهدت فرنسا ، باشرافها على البدو ، في تنظيم تنقلات القبائل بين البلاد العربية وحدود كردستان ، محاولة حصرهم في مكان ، ممـــا اثار مشاكل معقدة وخطيرة . يضاف الى هذا ان المتعلمين من خريجي الجامعة في دمشق كانوا يطمحون الى شغل وظائف عالية ، ولكن دوائر المفوضية العليا ما كانت لتتسع لجميع طلاب الوظيفة . وزاد في النقمة شعور العربي

بان فرنسا تقف حائلاً بينه وبين تحقيق امانيه .

وخلال الحرب العالمية الثانية وبعد هدنة ١٩٤٠ ، اجتهدت فرنسا في الابقاء على الوضع الراهن في المشرق لعلمها ان عدم ابرام المعاهدتين في البرلمان الفرنسي قد زاد العرب نفوراً منها . اما بريطانيا العظمى فقد استمرت في نهجها الخاص جاعلة من فلسطين والاردن قاعدتين بريطانيتين . اما سوريا ، المتاخمة لتركيا المحايدة ، والموضوعة تحت انتداب فرنسي موالٍ لحكومة المارشال بتان ، فقد بقيت بعيدة عن متناول مجهود بريطانيا الحربي . ولكن الحوادث تكفلت بوضع حد لهذه الحالة . ففي العام ١٩٤١ حصل انقلاب في العراق ، وتولت الحكم دكتاتورية غير موالية للانكليز . فلما كشر لها هؤلاء عن انيابهم استنجدت بالالمان ، فاستأذن هؤلاء حكومة فيشي في استخدام المطارات السورية ليتسنى لهم نجدة العراق ، فكان جواب حكومة فيشي الرفض . وتذرع البريطانيون و « فرنسا الحرة » بهذا الحادث لتبرير تدخلهم في سوريا واخضاعها لاشرافهم[1] .

وفي العام ١٩٤٢ اخضعت سوريا ولبنان لحكم بريطاني – فرنسي مشترك فرضه التدخل العسكري وما رافقه من التهاب الشعور الوطني وتضاؤل نفوذ فرنسا من جراء اقتتال قوات الجنرال دانتز وقوات فرنسا الحرة فيما بينها . وبعد ثلاث سنوات انتهى الحكم المشترك بجلاء الجيوش والادارة الفرنسية ، وتبوأ البلدان المشرقيان

١ اشار معظم الذين نشروا مذكراتهم عن الحرب الاخيرة ، ومنهم الجنرال كاترو ، لى ما ابداه البريطانيون من تحفظ حيال التدخل عسكرياً في المشرق . وقد ذكر كاترو لقي صعوبة كبيرة في اقناعهم بان التدخل لن يكون له ذيول خطيرة .

مركزهما في صفوف الدول المستقلة. ومما يؤسف له هو ان لبنان وسوريا ظفرا باستقلالهما بمعزل عن فرنسا. وهكذا انتهى دورنا في هذه المنطقة نهاية محزنة.

بعد هذا الحدث رأينا سوريا ولبنان والعراق وشرق الاردن تسير في اتجاهات متعارضة. ولو انها استوحت فكرة «الاتحاد الاسلامي» لسلكت على الاقل سبلاً متوازية. وقد شجع خروج فرنسا من المشرق بريطانيا العظمى على بعث حلم لورانس، فاوحت في العام ١٩٤٥ بحركة تهدف الى توحيد كلمة الشعوب العربية بما فيها الشعب المصري، فكانت الجامعة العربية. بيد ان هذا المشروع قام على اسس غير عملية. وفي الوقت نفسه عقدت مؤتمرات اسلامية لاختيار خليفة جديد، يكون عربياً هذه المرة، ولكن مداولاتها لم تسفر عن نتيجة.

ولئن تكن سياسة الهاشميين، تدعمها انكلترا، قد اخفقت في شبه الجزيرة العربية اخفاقها في بعث الخلافة العربية، فقد استطاعت احداث الدولة العراقية والدولة الاردنية، وربما قيض لها يوماً ان تجعل من سوريا نفسها مملكة هاشمية. والملاحظ ان انجال الحسين بن علي استمروا في سياسة الوحدة العربية التي رسمها والدهم وهي سياسة جعلت الاصطدام حتمياً بينهم وبين فاروق ملك مصر وابن سعود ملك المملكة العربية السعودية، بالرغم من مظاهر التفاهم والوفاق التي لا تخدع احداً.

غير ان توحيد الدول العربية في الشرق الادنى يصطدم بالخصومات التي تباعد بين عواهلها، وبمطامعهم الشخصية المتنافرة، ناهيك بتعدد العناصر والاديان والطوائف (هذه الظاهرة مشاهدة في سوريا على

الخصوص) . فالى جانب الخلافـــات العنصرية او القومية تقوم منازعات دينية وطائفية . وتحاول العروبة المعاصرة اقناع السواد بان العرق واللغة العربية هما الرابطة التي تشد المسلمين بعضهم الى بعض . بيد ان ما حدث عندما انقلبت الدعوة الى اعتناق الدين الجديد رغبةً في ابادة غير المؤمنين لا يزال طرياً في الاذهان [١] .

وقد جاءت قضية اسرائيل، وما اثارته حول تدويل القدس ، مما يوازي في نظر المسلمين اخضاع هذه المدينة المقدسة لسيطرة اليهود ، فضلاً عن بعثات التبشير والرهبنات المسيحية — جاءت قضية اسرائيل وذيولها تقدم اكثر من دليل على ان التطور في هذا الحقل لا يزال سطحياً . ومع هذا ففكرة الدولة العلمانية آخذة بالنمو ، يشجعها الملك عبدالله (؟) ، وتلاقي تأييداً متزايداً في سوريا ، وهي لا بد فالحة اخيراً في استمالة السواد ، فيسهل عندئذ صهر المسلمين والنصارى على الاقل في بوتقة الوطن الواحد . بيد ان اتجاهات مصر والملك عبد العزيز آل سعود تعرقل المساعي المبذولة لتحقيق الوحدة او الاتحاد وحتى مجرد التفاهم الطويل العمر . ولا بد من الاشارة الى ان سوريا هي الدولة العربية الوحيدة التي اعتمدت النظام الجمهوري (يستثنى لبنان الذي يغلب عليه الطابع المسيحي)، وان باقي الدول العربية في الشرق الادنى تخضع لنظام ملكي ثيوقراطي بالرغم من ترحيبها بفكرة الدولة العلمانية . وقد يكون هذا الاختلاف في انظمة الحكم

[١] ليس في تاريخ الفتوحات العربية ما يجيز للمؤلفين التعميم . ولئن يكن المغول قد وكبوا متن الشطط في بعض الحالات، فالدعوة الى اعتناق الاسلام اتسمت على العموم بطابع التسامح . — المعرب .

احد العوامل التي تباعد بين سوريا وهذه الدول .

بعد جلاء الانكليز والفرنسيين عن لبنان وسوريا انصرف البلدان ، في نطاق اللعبة البرلمانية ، الى تنظيم احوالهما سياسياً واقتصادياً . ويحرص لبنان على العيش بسلام مع جيرانه مع بقائه عضواً في الجامعة العربية ، متقيداً بميثاقها وقراراتها . ويبدو الموقف في سوريا ادق منه في لبنـــان من جراء تعدد العناصر والاديان . ويرغب العراق في ضم سوريا اليه او الانضمام اليها ليؤلفا معاً ما يسمونه « الهلال الخصيب » . ويرغب شرق الاردن في انشاء « سوريا الكبرى » المؤلفة منه ومن الجمهورية السورية بوضعها الراهن . ولكن سوريا نفسها لا يبدو عليها ، في الوقت الحاضر على الاقل ، انها ترحب بهذا المشروع او ذاك . فكلا المشروعين من صنع الهـــاشميين ، وسوريا الجمهورية لا تريد الخضوع لسلطانهم .

ولا بد من القول ان فكرة الوطن – ومثلها فكرة الجمهورية – شقت طريقها في سوريا مستمدة مفهومها ومقومـاتها من التاريخ . ويبدو ان رسوخها قد جر الى مكافحة النزعات ذات الطابع المحلي . فقد سيق الى ساحات الاعدام الزعماء العلويون الذين يطالبون لمنطقتهم بالاستقلال الذاتي[١] .

في ٣٠ آذار ١٩٤٩ قلب الكولونيل حسني الزعيم الحكومة السورية ، وحل البرلمان ، وعلق الدستور ، واخضع البلاد لدكتاتورية عسكرية . وهكذا انهارت المؤسسات البرلمانية التي مهرت بها سوريا في عهد

١ اعدم في سوريا زعيم علوي واحد وهو سليمان المرشـــد الملقب بالرب بتهمة الكيد للاستقلال . – المعرب .

الانتداب الفرنسي . وحسني بك ضابط قديم في الجيش التركي ، وقد خدم في القوات الخاصة التي انشأها الفرنسيون من عناصر سورية . وبعد الانقلاب سمّى نفسه مارشالاً ، واعتمد في حكم البلاد — وهو ممن يمتون بصلة الى الاكراد — على العلويين والعناصر غير العربية ، وفكر في التفاهم مع فرنسا وتركيا ، وحشد قوات على الحدود لتهديد العراق والاردن ، متحدياً بذلك الهاشميين ، وبالتالي انكلترا . وقد حاول حسني الزعيم بسلسلة من الاصلاحات وسم الدولة بطابع علماني ، مستوحى من الطابع التركي ، بحيث تصبح سوريا دولة عصرية تنصهر فيها الاقليات العنصرية والدينية انصهاراً حقيقياً ونهائياً . ويلوح ان الاتجاه الجديد الذي انطلقت فيه الدولة كان قميناً بانشاء دولة سورية — لبنانية على اساس فيدرالي . وربما كان بالامكان ادخال اسرائيل في الاتحاد . بيد ان المصاعب عرقلت جهود الانقلاب من جراء تضارب المصالح من داخلية وخارجية . يضاف الى هذا يكن لحسني الزعيم شخصية مصطفى كمال ومواهبه كي يتسنى له فرض منهجه . ومـا مضى خمسة اشهر حتى حصل انقلاب عسكري جديد ، فاعدمت سلطاته المارشال حسني بك وعادت الجمهورية السورية سيرتها الاولى ، ولكن السلطات الجديدة ابقت على بعض الاصلاحات التي حققتها الدكتاتورية العسكرية [١] .

وفي الظروف الحالية تتنازع سوريا ولبنان ، الذي يوقع خطاه

١ عمل المـارشال حسني على تقوية الجيش السوري الذي كشفت الحرب مع اسرائيل عن افتقاره الى السلاح والتنظيم . وقد تبنت السلطات الجديدة تدابيره في هذا الحقل .

على خطى جارته ، عوامل متضاربة ، فهما يحرصان ، من جهة ، على تأييد الاماني العربية ، ويحرصان ، من جهة اخرى ، على عدم اغضاب اميركا وتركيا . وتحاول سوريا ، بعد الانقلابات المتعاقبة ، ان تستعيد توازنها ، مع العلم ان عهد حسني الزعيم ، على قصر امده ، قد وضح اماني بلاده ومطامحها . فهي لا تريد الاندماج في العراق ولا في الاردن ، بل تريد البقاء مركز الحركات القومية في بلاد المشرق ، متخطية بذلك « العروبة » التي يقول بها الهاشميون . ويبدو ان التوازن الذي تنشده سوريا ليس سهل المنال ، بدليل الانقلاب الاخير الذي قام به الكولونيل اديب الشيشكلي ، متهماً « حزب الشعب » بالعمل ضد استقلال البلاد .

دول عربية اخرى

شرق الاردن والاردن

لا تعدو البلاد المسماة شرق الاردن كونها رقعة صغيرة من الارض ، قليلة السكان . وليس لهؤلاء طابع عنصري مميز ، ولم تعرف لهم حركة قومية خاصة . فشرق الاردن دولة اصطنعها الانكليز ليكافئوا عبدالله بن الحسين على مساهمته في الثورة العربية التي اعلنها والده .

نجد في شرق الاردن قبائل البدو الرحل والقرويين الذين يحبون حياة حضرية في المناطق المتاخمة لحوران ، ويلتقون واخوانهم السوريين في اكثر من ناحية . ونجد كذلك تجاراً وصناعاً معظمهم من اصل سوري او لبناني . وكان الملك عبدالله نفسه يقول ان عاصمته عمان كانت جزءاً من ولاية سورية . والواقع هو ان شرق الاردن كله كان ولا يزال ولاية سورية . ويقول سكانه انهم يعدون انفسهم مواطنين سوريين أبعدوا موقتاً الى مقاطعة نائية .

لقد وسمت الوصاية البريطانية شرق الاردن بطابعها . فالموظفون والضباط العرب يتكلمون الانكليزية ، وفي المدارس الرسمية جعل تعليم هذه اللغة الزامياً . ويسود البلاد النظام والطمأنينة بفضل القوة العامة الممثلة بالجيش العربي ورجال الدرك . والجيش العربي مجهز بالوسائل الآلية الحديثة ، يقوده ضباط انكليز . اما ملاكاته وافراده

فمعظمهم من البدو . وثمة وحدات شركسية مؤلفة من ابناء السلط ومن عناصر كانت تعمل في الوحدة الشركسية التي انشأها الفرنسيون . اما وحدة الدرك فانها تضم رجالاً منخوبين ، عددهم محدود ، ويتولى قيادتها اردنيون .

ان شرق الاردن مدين بوجوده الى ارادة بريطانيا العظمى الممثلة بغلوب باشا ، والى شخصية الملك عبدالله بن الحسين . وقد ارتضى العاهل هذا الحل الموقوت على امل ان يتاح له تحقيق « سوريا الكبرى » واسترداد عرش دمشق . ويبدو على الملك ، الذي يقدره شعبه ويحترمه ، انه مصمم على انشاء دولة عصرية . ولئن تكن « العروبة » في شرق الاردن مرعية الجانب ، فالملك يجهر بانه من انصار علمانية الدولة ، مع العلم انه يعد نفسه حامياً للايمان[1] .

وقبل الحاق فلسطين العربية بشرق الاردن لم يكن لهذه الدولة شأن يذكر ، ويمكن القول ان المصير الذي كان ينتظرها هو ذوبانها في سوريا والمملكة العربية السعودية ، فتضم الاولى الجزء الشمالي حتى معان ، وتضم السعودية الجزء الممتد من معان حتى العقبة على البحر الاحمر . اما الآن فقد ازدادت الامور تعقداً ، اذ تجاهل الملك عبدالله الجامعة العربية واقدم ، بالاشتراك مع اسرائيل ، كما تدل القرائن ، على تجزئة فلسطين ، فاقتطع هو جزءاً واقتطعت اسرائيل الجزء الآخر ، ثم تقاسما القدس . وبضم الجزء العربي الى شرق الاردن

[1] عندما زار الشيخ العقبي والقاضي بن حورا الجزائريان شرق الاردن لاحظا ان الملك مصمم على انشاء دولة علمانيه ، وانه ، الى جانب هذا ، متمسك باللغة العربية ، ويرى ان العروبة قمينة بتوحيد الدولة اياً كان دينها .

ضاعف الملك اراضي مملكته وعدد رعاياه ، واعطى شرق الاردن اسماً جديداً هو « الاردن » الذي لا يعدو كونه دولة صغيرة ، ولكنها دولة يحسب لها حساب .

حدث هذا والحرب في فلسطين مستعرة الاوار ، وقبل ان تتخذ الامم المتحدة مقرراتها المعروفة . واذا صرفنا النظر عن تجاهل الملك عبد الله وجود الجامعة العربية ووقع هذا التجاهل في العالم العربي ، نلاحظ ان ضم الجزء العربي من فلسطين لم يقابل بارتياح في بعض الاوساط الفلسطينية نفسها ، فكان مناطق القدس ورام الله ونابلس غير راضين عن صيرورتهم رعايا اردنيين . يضاف الى هذا ان القسمة التي حصلت لم تحل المعضلة الفلسطينية ، وان مشكلة اللاجئين تزيد القضية تعقداً .

واذا نظرنا الى المستقبل ، نلاحظ ان تطور الاردن قد انجلى — شأنه في ذلك شأن تطور الاقطار العربية المجاورة له — عن ظهور طبقة من المثقفين غير موالية للنظام الملكي بحالته الراهنة . لهذا يمكن التساؤل : أيكون لانجال الملك ، بعد موته ، السلطة والنفوذ اللازمان للحفاظ على الاردن بوضعه الحالي ، مع العلم انه بلد فقير ، ينمو اقتصادياً ويتطور بصعوبة ظاهرة ؟

ومجمل القول ان الملك عبد الله انتهز فرصة النزاع مع اسرائيل ليكبر رقعة مملكته ، واستطاع في الوقت نفسه ابقاء جيشه بمعزل عن النزاع . ولا ريب في ان مصر قد منيت بالهزيمة لان باقي الدول اعضاء الجامعة العربية اطلقت يد اسرائيل في العمل ، ولم تفعل شيئاً لتخفيف الضغط عن الجيش المصري . وحاول عبد الله ، والحرب قائمة ، التفاهم مع اسرائيل من جهة ، وجرّ سوريا الى تبني مشروع « سوريا

الكبرى » من جهة اخرى . وقد رفضت دمشق هذا المشروع كما رفضت مشروع « الهلال الخصيب » الذي يوحّد بينها وبين العراق. ولو افلح الملك عبد الله في اعلان نفسه خليفة لكان له في العالم الاسلامي نفوذ عظيم ، ولكنه لم يفلح ، فقنع بان يكون عاهلاً لدولة صغيرة محدودة الموارد . وفي الظروف الراهنة يعيش الاردن في شبه عزلة بين الدول العربية التي لم تغتفر له موقفه في النزاع الفلسطيني . وهو يعتمد في معيشته على ما تقدمه اليه بريطانيا من مساعدات .

ولو لم تكن الاحقاد متأصلة بين العناصر والطوائف لامكن القول ان تفاهماً بين الاردن واسرائيل قمين بان يحل المشكلة . واذا حصل هذا التفاهم فمن المشكوك فيه ان يعمر طويلاً . لهذا يجب ان نتوقع زوال احدى هاتين الدولتين يوماً من الايام . فالاردن يمكن ان يدمج في سوريا ، ويمكن اسرائيل ولبنان ، من جهتها ، ان يقترحا انشاء اتحاد فيدرالي متوسطي . ومهما يكن من امر فالتكهن بمثل هذه الامور سابق لاوانه ، مع العلم ان هذه القضايا المحلية قد طغى عليها النزاع الروسي – الاميركي ، ويلوح ان مقدرات دول المشرق باتت رهناً بمقررات العملاقين المتنافسين .

وحتى العام ١٩٥٠ بقي الملك عبد الله زعيماً له شأنه بصفة كونه اقدر الهاشميين على الاستمرار في سياسة الوحدة العربية التي وضع أسسها والده الحسين ، فضلاً عن كونه قائد الحركة المسماة « العروبة » . وقد كان الاردن يضيق بشخصيته الفذة . بيد ان ضؤولة موارد مملكته واعتماده على المساعدة البريطانية قد حدّا من نفوذه في العالم الاسلامي .

وفي العام ١٩٥١ اغتيل في عمان رياض الصلح رجل الدولة

اللبناني ، ثم اغتيل الملك عبدالله في مسجد عمر بالقدس . ويبدو ان الحادثين قد سددا ضربة شديدة الى النفوذ البريطاني في الشرق الادنى لان الضحيتين كانتا مؤيدتين لمشروع سوريا الكبرى . وقد اغتيل الملك في وقت كانت نقمة الجامعة عليه قد بلغت الذروة لانه هادن اسرائيل وضم الى مملكته الجزء العربي من فلسطين . ولا شك في ان تواري الملك حدث يتجاوز الاردن . فقد كان عبدالله بن الحسين شخصية لامعة قوية في الشرق عموماً والشرق العربي على الاخص . كان عنصراً مجدداً في نطاق الاعتدال . وبعد وفاته ، واجه الاردن مشكلة دقيقة هي اختيار العاهل الجديد ، لان ولي عهده طلال عاجز عقلياً – كما يقال – عن الاضطلاع بالعبء . الا ان هذا لم يحل دون تربعه على العرش بعد استبعاد شقيقه الامير نايف . ومهما يكن من امر فالاردن يبدو ، الآن ، اضعف من ان يتصدى لتحقيق مشروع « سوريا الكبرى » لمصلحته هو . اما دمشق التي قويت شوكتها فانها تبدو اليوم اقدر منها بالامس على ضم الاردن الى سوريا . ويمكن التأكيد ان الارتباك السياسي والعسكري قد ازداد في المشرق بعد مصرع الملك عبدالله .

العربية السعودية

انشأ عبد العزيز آل سعود في شبه الجزيرة (١٩٢٥) دولة ذات نظام ملكي ثيوقراطي ، وذات نزعة عصرية الى حد ، في حين كانت تركيا تسلك طريق العلمانية ، ومصر تعتمد حلاً وسطاً .

نشأت الحركة الوهابية ، في القرن الثامن عشر ، انتفاضةً في وجه

الموجة الفلسفية المتصاعدة في دنيا الاسلام . اما مؤسس الحركة، عبد الوهاب ، فقد كان شديد الاستمساك بتعاليم ابن حنبل . الا انه ذهب في التزمت الى اقصى الحدود . ويقول الوهابيون ان شارحي القرآن قد افسدوا العقيدة بتفاسيرهم ، وان تعاليم النبي قد شوّهت بهوامش غير صالحة . وقد ذدب عبد الوهاب نفسه لاخراج بلاده من دياجير الاوهام والخزعبلات ، وعمل في الوقت نفسه على اعادة الايمان الى شكله البدائي البسيط . وكانت تعاليمه سبباً في انتفاض الوهابيين في العام ١٨٠٠ على العثمانيين ، فاستولوا على مكة والمدينة ، وقلبوا الحجر الاسود وامتدت ايديهم بالتخريب الى قبر الرسول . ولما عجز السلطان عن اخضاعهم عهد بهذه المهمة الى خديوي مصر محمد علي الذي تم له اخضاعهم في العام ١٨١٨ .

كانت العلاقات طيبة بين الوهابيين والشريف حسين عندما شهر الشريف السلاح في وجه الاتراك (١٩١٦) . الا ان هذا لم يمنع رجال ابن سعود من تموين المدينة بعد ان حاصرها العرب وضيقوا على حاميتها التركية الخناق .

وفي العام ١٩٢٠ اثار الوهابيون قبائل العربية الوسطى ضد الانكليز ، حماة الشريف ، وذلك بدافع من حقدهم التقليدي على السنيين . وقد عرفت انكلترا مذ ذاك كيف تداريهم ، فاعترف ملك المملكة المتحدة (انكلترا) بامير نجد سلطاناً عليها ، وتقيدت لندن بالسياسة العربية التي رسم خطوطها اللورد كورزون في العام ١٩١٩ ، وكان عامئذ نائب الملك في الهند ، ومثّل مصالحها السرجون فيلبي لدى ابن سعود السلطان الوهابي ، كما مثّل ويلسون ولورنس مصالحها لدى الشريف وانجاله . فلما ضم ابن سعود الحجاز الى نجد لم تتأثر مصالح

بريطانيا العظمى بهذا الحدث .

وبعد ١٩٢٥ تحول الوهابيون عن الهاشميين وهاجموا اليمن ، فواجههم إمامها بمقاومة ضارية اضطرتهم للنكوص على اعقابهم . وقد طلقوا مذ ذاك فكرة التوسع بقوة السلاح ، مع العلم ان تعصبهم ضد كل ما هو غير وهابي قد خفّت حدته مع الايام . ولما جنح ابن سعود الى الاخذ باسباب الرقي ، انبرى له غلاة المحافظين من اتباعه واخذوا عليه اعادة موسم الحج واستثمار هذا المورد لمصلحته ، متناسياً ان الوهابية تحارب البدع ولا تسمح بزيارة اضرحة الاولياء ، كما اخذوا عليه تخطي الحدود التي رسمها عبد الوهاب والعمل على اعطاء الدولة طابعاً عصرياً . وقد كافح ابن سعود هذه الحركة الرجعية بعنف وتم له اخضاع « المتمردين » . بيد انه لم يتنكر للتعاليم الوهابية ، فبقي بعيداً عن السنة ، ولم يأخذ من الغرب الا ما هو ضروري لنمو البلاد وتطورها . اما موقف العالم الاسلامي منه فقد بقي هو اياه ، فما نادى به خليفة للمسلمين ، لان الوهابية كانت ولا تزال هرطقة تجب محاربتها .

الا ان العود بالايمان الى سذاجته البدائية واقامة الدولة على اساس « الشريعة » ، الى جانب الترحيب بالثقافة التكنيكية الحديثة ، قد اوجدا في العالم الاسلامي ما تصح تسميته « النايو وهابية » (الحركة الوهابية الجديدة) ، وهي حركة دينية في الاصل ، ولكنها تمتد الى الحقول الثقافية والسياسية والاجتماعية . وقد ذهب محمد اسعد بك في كتابه « الله اكبر » الى ان نظام ابن سعود يفضل نظام مصطفى كمال ، وانه قادر ، بالتالي ، على بعث امجاد الاسلام بعد ازالة ما علق به على مرّ الاعوام . ويمكن القول ان الحركة الوهابية

الجديدة قد وجدت تربة صالحة في افريقيا الفرنسية .

يقول « حسن » في كتابه : « كيف تهلك الجزائر الفرنسية » :
« نلاحظ ، مع الاسف ، ان الدين ، كما مارسه الانصار ، لا وجود له في اي بلد اسلامي . وقد استطاعت الحركة الوهابية الدنو منه بعض الشيء عندما كانت منطوية على نفسها في صحراء نجد ، ولكن ما ان اخرجتها انكلترا من مهدها البدائي حتى اضطرت ، من اجل الحفاظ على كيانها ، الى تنازلات خطيرة لمصلحة روح العصر ومختلف المذاهب الاسلامية . ولئن تكن الحركة الوهابية قد نجحت في تثبيت دعائمها سياسياً بفضل مرونة الملك عبد العزيز آل سعود ، فجمودها كحركة مذهبية واقع لا جدال فيه . ذلك بان ملك نجد والحجاز يخشى نزعات الاسلام القديمة ، ويعتقد ان اعطاء العربية السعودية شكل دولة عصرية هو اضمن لبقائها . »

هذا ما كتبه مسلم بعيد النظر في العام ١٩٣٨ . ولا شك في انه لم يظلم الوهابية عندما قال انها لم تحقق اي تقدم بصفة كونها حركة مذهبية ، فالسنوسية تبدو من هذه الناحية اقرب الى روحية الاسلام . ولعل بقاء ابن سعود بعيداً عن مركز الصدارة في العالم الاسلامي مرده الى هذا الجمود الذي فضحه الكاتب المغربي « حسن » . يضاف الى هذا ان الرأي العام العربي يعيب على ملك الحجاز ونجد تقاعسه في النزاع مع اسرائيل ومواقفه المائعة في الجامعة العربية .

اضطر الملك عبد العزيز الى ايثـــار صداقة اميركا على صداقة انكلترا عندما قرر اعطاء بلاده طابع الدولة العصرية . وقد رأينا الاميركيين ، بعد الحرب العالمية الثانية التي لزم فيها ابن سعود الحيدة المطلقة ، يظفرون منه بامتيازات البترول ويستملكون اراضي

صالحة لانشاء المطارات . ذلك بان رفقة السلاح بين الانكلوسكسون لم تمنع اختلافهم حول البترول الذي ينبع بين الخليج الفارسي والبحر الاحمر . وقد كانت الغلبة للاميركيين ، واضحت ايران وشبه الجزيرة العربية جزءاً من الجهاز الدفاعي الاميركي الذي سيقف في وجه المطامع السوفياتية .

يتضح مما اسلفنا ذكره ان العربية السعودية دولة ثيوقراطية ترتكز دعائمها على « الشريعة » ، وان الاردن يرتدي طابع الدولة العلمانية مع بقاء الاسلام ديناً للدولة ، وان الدولة الاولى خاضعة اقتصادياً للسيطرة الاميركية ، اما الاردن فيخضع للسيطرة البريطانية . ويتضح كذلك ان الملك عبد العزيز آل سعود ، مع ما يتمتع به من نفوذ نسبي في العالم الاسلامي ، لم يوفق الى الخروج من عزلته ، فهو قد خسر بعض معالم قوته بالحد من موجة التعصب الوهابية ، وفقد بعض نفوذه عندما منح الاجانب امتيازات في بلاده .

وفي اطار التطور الاسلامي العام تقدم الينا العربية السعودية احد الشواهد على صعوبة التوفيق بين الاستمساك بالدين ، روحاً وحرفاً ، وبين مجاراة التيارات العصرية .

العراق والمسألة الكردية

منذ العام ١٩٢٠ تولى الملك فيصل الاول ادارة العراق بحذق ومهارة . واشرفت انكلترا على سير الامور في هذه المملكة الناشئة . وقد واجهت فيصلاً مصاعبُ ذات بال نجم بعضها عن حركات الاكراد في شمال البلاد ، ونجم البعضُ الآخر عن مطالبة تركيا

بولاية الموصل وادعائها ملكية حقول البترول (وهي حقول كانت في الاصل من نصيب فرنسا ، فتنازلت لبريطانيا العظمى عن حصة الاسد) ، ناهيك بما يقوم بين الشيعة والسنّة في العراق من عوامل التفرقة والنزاع ، وبالعداء التقليدي الذي يباعد بين العرب والاكراد .

وفي العام ١٩٣٢ حملت انكلترا عصبة الامم على الاعتراف باستقلال العراق . وفي ايلول ١٩٣٣ توفي الملك فيصل الاول ، ففقد العرب ، بل فقدت حركة التحرر في العالم العربي قائداً حكيماً ، بصيراً بالامور . وفي عهد نجله غازي الاول قامت في البلاد اضطرابات خطيرة لم تكن الاصابع الاجنبية غريبة عنها . وعقب ذلك الانقلابُ العسكري الذي اخضع العراق لديكتاتورية الجنرال بكر صدقي . ثم انزاح عن صدره كابوس هذه الدكتاتورية بمقتل الجنرال . وكان الملك الشاب قد ذهب قبل عامين ضحية حادث سيارة (نيسان ١٩٣٤) فنودي بنجله فيصل الثاني ملكاً ، وعهد بالوصاية الى خال الملك الطفل الامير عبد الاله نجل الملك علي بن الحسين . وفي العام ١٩٤١ خيّل الى رئيس الوزارة العراقية رشيد عالي الكيلاني ان الوقت قد حان لفصم العرى التي تشد بلاده الى بريطانيا العظمى ، واعتمد في الحركة التي قام بها على المانيا . فكان لحركته ذيول خطيرة في سوريا ، كما تقدم معنا ، واسفرت عن توطد النفوذ البريطاني في العراق . وقد بذلت مذ ذاك مساع للتقريب بين بغـــداد وعواصم باقي الدول العربية ، ولاسيما دمشق ، ولكن هذه المساعي لم تؤت ثمارها المرجوة .

ومما يجدر ذكره ان المسألة الكردية تمثل دوراً رئيسياً في حياة العراق السياسية وتتحكم بمقدراته . ولئن كنا نعرض لهذه المسألة هنا فلأنها تقف حجر عثرة في طريق تطور العراق ، وبالتالي ، تطور

الشرق الادنى . ذلك انه اذا كان يباعد بين البلاد العراقية وايران اختلاف المثاليات وتضارب المصالح الاقتصادية، وبينها وبين تركيا طابعها العربي ، وبينها وبين العراق بقاع نصف صحراوية تعرقل تحقيق « الهلال الخصيب » ، ففي تركيا وايران والعراق وسوريا نفسها تعيش جماعات من الاكراد ، ويؤلف الفرات ودجلة المنفذ الذي يجعل البحر في متناول كردستان .

وعند درسنا الوضع في تركيا ألمعنا الى انبعاث الحركة الكردية عقيب الحرب العالمية الاولى . وقد عادت المطامح الكردية الى الظهور في اواخر العام ١٩٤٠ ، مذكرة الرأي العام العالمي بوجود شعب كردي خاضع لسيطرة اربع دول . وفي ٣٠ آب ١٩٤٣ تسلمت الدول الحليفة مذكرة من زعماء الحركة الكردية في بيروت وهم شخصيات ذات وزن تتعهد نهضة الشعب الكردي فكرياً وسياسياً . وقد جاء في المذكرة ما معناه :

ان كردستان التي تؤلف كياناً جغرافياً واقتصادياً وقومياً مستوفياً شروط الانسجام مدعوة لتمثيل دور هام في الشرق الادنى . لهذا ينبغي للدول الكبرى ان تتيح للعنصر الكردي ، بالنظر الى اهمية موقع بلاده الاستراتيجي ، ان يؤلف مجتمعاً مستقلاً ، ومن ثم عاملاً سياسياً مستقراً بدلاً من تركه مبعثراً هنا وهناك تتقاذفه المصالح المتضاربة كما هي الحال في الوقت الحاضر. ولا ريب في ان التسليم بعجز الاتراك والايرانيين والعراقيين عن تذويب الامة الكردية ، ينال بعض الشيء من هيبتهم ، ولكن هذه الامم تربح كثيراً ان هي سلكت الطريق المؤدية الى تحويل القلة التي تضايقها الى جار يمكن الاطمئنان الى جواره .

وتكرر المذكرة المطالب التي قدمها الاكراد الى مؤتمر « سيفر » منذ عشرين عاماً . وفي ٢٦ تشرين الثاني ١٩٤٥ رفعت « العصبة الكردية » مذكرة جديدة الى الدول العظمى ضمنتها دفاعاً حاراً عن

الحركة الكردية المتهمة « باثارة القلاقل والاضطرابات في بعض البلدان ، مع انها تهدف الى ازالة وضع غير عادل كان منذ قرن ونصف القرن ولا يزال مصدر متاعب لا حصر لها لاكثر من دولة من دول الشرق الاوسط . »

وفي ١٠ آذار ١٩٤٧ بعثت العصبة الكردية بمذكرة الى وزراء خارجية الدول الاربع المجتمعين في موسكو جاء فيها ما نصه :

اذا كانت بعض الاعتبارات الدولية تحول دون قيام كردستان مستقلة في الحال–وهذا ممكن ويجب ان يتم – فتتدخل الدول العظمى على الاقل لتحسين وضع الاكراد وذلك بان يُعترف لهم بالاستقلال النوعي في نطاق الدول التي تضمهم . واننا نجيز لانفسنا ان نلفت سعادتكم الى ان موقف هذه الدول المنافي للعدالة والحق ، بالاضافة الى لامبالاة الدول العظمى ، من شأنه ان يسمّ افكار الشبيبة الكردية المتحمسة ويزعزع ايمانها بالحق والعدالة . اننا نرى من اقدس واجباتنا التشديد على هذه الناحية لان الشبيبة الكردية التي جبلت بالالم وجعلتها المظالم شديدة الحساسية قد تجنح يوماً الى الفوضوية بدافع من اليأس. وان هي فعلت فاللوم لا يقع عليها.

وفي التاسع من كانون الاول ١٩٤٥ طُلب الى الامم المتحدة درج المسألة الكردية في جدول اعمال الجمعية العمومية . ونشرت في الوقت نفسه مذكرة ضمنتها العصبة الكردية اهم الحوادث التي وقعت بين ١٩٢٠ و ١٩٤٨ ، ولاسيما حوادث العراق التي سببتها حركة الملا مصطفى البرزاني ، وحوادث ايران التي سببها قيام الجمهورية الكردية في ماهاباد . وفي ٣٠ تموز ١٩٤٧ تلقى رئيس لجنة حقوق الانسان مذكرة من الحزب الديموقراطي الكردي ، ولكن اللجنة رفضت النظر في المذكرة . وفي كانون الثاني ١٩٤٩ تلقت من الحزب نفسه كتاباً جاء فيه ما نصه : « لم يبق امام الاكراد الا سلوك احد سبيلين : فاما ان يصبحوا ايرانيين في ايران واتراكاً في تركيا

وعرباً في العراق، او ان يبادوا كما ابيد الارمن والاشوريون من قبل.»

وهكذا ينهض الاكراد، بعد العرب، المطالبة بوطن ولابراز خصائصهم القومية. ويلاحظ من الناحية الاسلامية ان الاكراد، من سنيين وشيعيين، متضامنون في وجه خصوم حركتهم. وهذا الواقع يشكل عاملاً له شأنه في تطور الاسلام المعاصر.

لقد استنجد الاكراد بالامم المتحدة على غير طائل، لان انكلترا لم تشأ اغضاب العرب، ولم تشأ اميركا اغضاب تركيا وايران اللتين لا تنظران بارتياح الى تلبية مطالب هذه الاقلية العنصرية، مع العلم ان للاكراد، سنيين كانوا ام شيعيين، مثالية قومية تسود فيها فكرة الوطن قبل الدين نفسه، وهذا شاهد آخر على نمو فكرة الوطن في بقعة من العالم الاسلامي تتأثر الى حد ما باتجاهات الاسلام الاسيوي.

يمكن الاكراد، في حال اخفاقهم نهائياً في استمالة الاميركيين، ان يعتمدوا على عطف الروس. ولا ننسى ان الطريق التي سيسلكها الجيش الاحمر لبلوغ مناطق البترول في الموصل والخليج الفارسي تمر في كردستان، وان الاكراد هم على العموم معادون للايرانيين والعراقيين والاتراك، وان وادي الفرات ودجلة وممرات جبال ارارات في ارمينيا تؤدي الى ديار بكر والموصل وبغداد. لهذا عرضنا للمسألة الكردية عند درسنا الوضع في العراق، مع العلم ان هذه المسألة تلابس الوضع العام في الشرق الاوسط وآسيا الوسطى. ذلك ان الشعب الكردي يشكل، عند الاقتضاء، دعامة قوية للسياسة السوفياتية. وقد ادرك كليمنصو وبعثة برغون هذه الحقيقة والحرب العالمية مستعرة الاوار. ولا شك في ان تحقيق وحدة الامة الكردية

على يد الاتحاد السوفياتي سيكون له اثره البارز في تحديد مصائر بلدان الشرق الاوسط وآسيا الوسطى .

ان العروبة ، التي تتلقى الوحي من انكلترا والتي يوجهها الهاشميون ، تبدو اليوم وكأن الشيخوخة قد ادركتها . الا انها ما تزال مصدر قوة العنصر العربي الذي يحتفظ بكبريائه ويطمح دائماً الى السيطرة . وقد اجتذب العالمان العربي والاسلامي الاميركيين ، ففرضوا سياستهم وسيطرتهم الاقتصادية ، غير ملتفتين الى القيم المحلية من روحية ودينية . وفي آسيا اليوم تيارات تجاوزت الاشكال الفيدرالية لتنشد الوحدة بل اللحمة بين الشعوب بقطع النظر عن الاديان . فاذا اغفل مسلمو الغرب عموماً والمسلمون العرب على الاخص شأن هذه التيارات القوية ، فقد يأتي يوم تصطدم فيه عجلة تطورهم بما يؤخر سيرها . ومما لا شك فيه ان المسألة الكردية وملابساتها ستمثل دورها في الاحداث الاسلامية المقبلة .

ونعود الى الوضع في العراق من حيث هو دولة اسلامية في الشرق العربي ...

في العام ١٩٥٠ اقترحت حكومة بغداد، مسايرةً منها للرأي العام، على حكومة لندن ، تعديل معاهدة ١٩٣٠ . وكان صالح جبر والمستر بيفن قد وقعا في بورتسموث (١٩٤٨) على معاهدة جديدة ، الا ان البرلمان العراقي رفضها . وفي خريف ١٩٥١ زار نوري باشا السعيد العاصمة البريطانية ودخل مع حكومة صاحب الجلالة في مفاوضات اسفرت عن عقد اتفاق سياسي ـ اقتصادي .

وفي العراق اليوم نزعة الى تأميم البترول ، على نحو ما جرى في ايران ، ويطمح الشعب العراقي الى مثل ما يطمح اليه الشعبان

المصري والايراني – ولكن بشيء من الاعتدال – الى استكمال معالم الاستقلال والسيادة.

فيتضح مما تقدم ان حرب البترول مستعرة الاوار في الشرقين الاوسط والادنى، وان بريطانيا العظمى تواجه الدول العربية منفردة بعد ان اقصت فرنسا عن الموصل اولاً ثم اضطرت للجلاء عن سوريا ولبنان. ولئن تكن العربية السعودية ذات البترول الذي يصب في ميناء قرب صيدا لا تشاطر باقي الدول العربية وايران تحفظها واحتراسها، ولا تقيم، بالتالي، العراقيل في طريق استثمار بترولها، فمرد ذلك، ولا ريب، الى حرص الاميركيين على تأمين دخل كاف للملك ابن سعود.

الجامعة العربية ومسألة اسرائيل

« الى جانب الاسلام الديني يقوم اسلام سياسي تتضح معالمه يوماً بعد يوم[1] » .

فمنذ ١٩١٨ طرأ تحوّل اساسي على حياة الشعوب الاسلامية في الحقل الاقتصادي . يقول بلّيغران في كتابه « الاسلام في العالم » ما نصه :

« اننا نرى شعوباً ، كانت في الامس تحصر نشاطها في نطاق تعاليم القرآن والسنّة ، وتعيش مقفلة في وجه التيارات الاجنبية ، فتتهافت اليوم على نتاج الفكر الاوروبي مستمدة منه الطاقة على تحقيق مطامحها ، او على الاقل القدرة على الخروج من طور الخمول والجمود الذي طال امده . »

وقد كانت تركيا السابقة الى التخلي عن المؤسسات الدينية والسياسية التي كانت قوام الامبراطورية العثمانية منذ قرون . واعتمد زعماؤها النزعة القومية والشعور الوطني في عملهم الاصلاحي الجبار . وما لبثت ايران وافغانستان ان تأثرتا خطى تركيا في هذا المضمار . وكان لهذه الحركة التقدمية صداها في العالم الاسلامي ،

١ بليغران في : « الاسلام في العالم » .
Pellegrin, *L'Islam dans le Monde.*

فانبرت شعوبه ، مستقلةً كانت او خاضعة للسيطرة الاجنبية ، تفصح عن امانيها ومصالحها ، محاولة تحقيقها بما تملك من وسائل .

وهنا يجوز لنا التساؤل : ألا يخسر الدين ، في جوهره ، ما تكسبه النزعة القومية ؟ يقول بلّيغران : « النزعة القومية في الشرق هي هدية اوروبا الى الشرقيين . وقد فعلت فيهم فعل الوباء الذي لا يوفر احداً . » ويمكن القول ان الشعوب الاسلامية كافة لم تسلم من هذا « الوباء » . وسنرى في فصل لاحق ما كان رد فعل الاسلام الاسيوي في هذا الحقل . وفي حوض المتوسط بدا على بعض الشعوب ، كالشعب المصري مثلاً ، انه يحرص على ان يتم تطوره السياسي في نطاق القرآن والتقاليد والحفاظ على اللغة العربية ، لغة القرآن . اما في اسيا فثمة نزعة قوية الى ترجمة القرآن والتنكر للغة العربية التي انزل بها . وهذا التطور في الحركة الاسلامية العامة يشكل الثغرة الاولى في ماض كان يؤلف حتى الامس القريب كلا خيّل الى الباحثين انه غير قابل التجزئة .

يقول بلّيغران : « ان العالم الاسلامي ينزلق ببطء ولكن باستمرار نحو تبني المفاهيم الحديثة ، اي المفاهيم الغربية للاحوال الشخصية . ففي كل مكان نزعة صريحة الى الغاء تعدد الزوجات ، والى جعل الطلاق حقاً مشتركاً ، لا يعترف به للرجل وحده . وفي كل مكان نزعة الى تبني الافكار الاوروبية واقتباس العادات التي لا تتعارض وجوهر الدين . »

ويلاحظ بلّيغران من جهة اخرى ان اوروبا لم تتأثر فكرياً بالحركة الاسلامية : « اننا نجد في مدن كبرى كلندن وبرلين جماعات صغيرة من الاوروبيين الذين اعتنقوا الاسلام ، ولكن هذا الواقع

ليس اكثر من ظاهرة عادية مشاهدة في الحياة الدينية المعاصرة .»
وفي فرنسا جماعات من العمال المسلمين الذين وفدوا اليها من افريقيا الشمالية ، والمسائل التي يثيرها وجودهم يغلب عليها الطابع الاجتماعي بالدرجة الاولى . وفي اميركا جماعات اسلامية مؤلفة من المهاجرين الذين ليس لهم طابع مميز ولا تجمع بينهم رابطة .

ويرى بلشيغران ان الفكر الغربي الحديث لم يتأثر بالفلسفة الإسلامية : « عندما اقبل رجال الفكر الاوروبيون بين ١٩٢١ و ١٩٣٠ على ورود مناهل الفكر الشرقي خيّل الى المراقبين ان الاسلام ، ديناً وحركة ، سيلقي بثقله في احدى كفتي الميزان ، ولكن ذلك الاقبال لم ينجم عنه سوى ازدياد الميل الى التوسع في درس التاريخ الاسلامي وتعريف الغرب الى الحركة الاسلامية في مدها وجزرها . »

ومع هذا ففي العالم ثلاثمئة مليون مسلم يجمع بينهم ايمان هو وليد الفكر العربي . وقد اضحى الاسلام السياسي احدى الضرورات بعد ظهور النزعة القومية . ولكن انصار التطور والتجديد يواجهون في كل مكان ، في آسيا البعيدة وحوض البحر المتوسط ، حركة تهدف الى العود بالايمان الى بساطته البدائية ، وتسهر على سلامة التقاليد الموروثة . وفي الوقت الذي يشهد الشرق الاقصى ذوبان العناصر والاديان في الدولة الواحدة والموحِدة (بكسر الدال) ، يحاول رجال الدين في حوض المتوسط بالاشتراك مع التقدميين الابقاء على تفوق العنصر العربي واللغة العربية في العالم الاسلامي . انهم مقتنعون بضرورة التوفيق بين تنشئتهم الدينية وبين الحضارة الغربية ، على ان يتحقق ذلك في نطاق الاسلام والعروبة . ومن

هذا الاقتناع انبثقت فكرة الجامعة العربية .

لقد كانت حركة الوحدة الاسلامية حركة محض دينية . وهل يمكن تصور وجود اسلام موحد لا يكون على رأسه خليفة يضطلع باعباء الزعامتين الزمنية والدينية ؟ في العام ١٩٢٢ قامت في استمبول خلافة « فيدرالية » الطابع الى حد ، وذلك عندما خلع البرلمان التركي السلطان محمد السادس وانتخب عبد المجيد خليفة للمسلمين ، متجاهلاً حقه الوراثي بهذا المركز المرموق . بيد ان هذه التجربة لم تعمر طويلاً ، اذ الغيت الخلافة في ٥ آذار ١٩٢٤ بقرار اصدره المجلس الوطني الكبير .

ليس للاسلام الموحد في ايامنا رئيس ديني . وقد حاولت المؤتمرات الاسلامية التي عقدت بين ١٩٢٦ و ١٩٣٧ ، وعددها اربعة ، ان تجد حلاً لمسألة الخلافة ، ولكنها لم توفق الى اختيار الزعيم الروحي . وفي احد هذه المؤتمرات (المؤتمر الذي عقد في القدس ١٩٣١) تبلورت حركة الوحدة العربية التي تناصب الغرب العداء في هذه الايام . ويمكن القول ان المؤتمر المذكور هو الذي عجّل بظهور الاسلام السياسي عملاً بتوصيات الشخصيات الدينية نفسها . وهكذا تركت حركة الوحدة الاسلامية مكانها لحركة الوحدة العربية ، وهي حركة ذات طابع عنصري او قومي تهدف الى توحيد كلمة الاقطار التي تقطنها ، لا الشعوب العربية اللسان فحسب ، بل الشعوب العربية العنصر . ولا ريب في ان الوحدة المثلى هي التي تتجسد في قيام امبراطورية عربية دستورية ، فيدرالية عند الاقتضاء ، على رأسها امير عربي ، ولكن الحوادث والتنافس بين ملوك العرب جعلت تحقيق هذه الامنية متعذراً .

ومهما يكن من امر ، فقد نهض الشرق الادنى والعالم العربي للمطالبة بالاستقلال التام الناجز ، متأثرين بالتيارات التي رافقت الحرب العالمية الاولى وبالنزعات والمبادىء التي ظهرت عقب انتهاء الحرب ، ولا سيما مبادىء ويلسن الاربعة عشر . ولئن يكن زغلول باشا قد تسلح بالشجاعة الكافية لمواجهة الانكليز بتصميم مصر على استخلاص استقلالها ، فدول آسيا الصغرى قد آثرت لزوم جانب الحكمة والتروي ، منتظرة سنوح الفرصة للافصاح عن رغبتها في التحرر . وسنحت هذه الفرصة عندما شرعت الحركة الصهيونية تتحفز لغزو فلسطين « سلمياً » . وقد استغل المسلمون ، لمناصبة اليهود العداء ، الحوادث التي كان « حائط المبكى » في القدس مسرحاً لها . وهذا الحائط هو احدى بقايا هيكل سليمان ، الذي اقام العرب على انقاضه المسجد الاقصى او مسجد عمر . واختار المسلمون مدينة القدس نفسها لعقد مؤتمر ١٩٣٦ ، وقد اتخذ المؤتمرون المقررات الآتية :

– تقوية الاسلام بانشاء جامعة عربية في بيت المقدس .
– توسيع نطاق الدعاوة للاسلام وللغة العربية في ديار الاسلام .
– تسليم شؤون المسلمين الروحية في كل قطر اسلامي الى شخصيات قادرة على الاضطلاع بالمهمة .
– اصدار صحف ومجلات تكون مهمتها نشر الثقافة العربية .
– تأليف لجنة دائمة .

كانت هذه المقررات انتفاضة عربية في وجه تركيا العلمانية التي اقدمت على ترجمة القرآن واغفلت شأن اللغة العربية . ولم يكن الغرض من هذا التضامن اظهار قوة حركة الوحدة العربية الرامية

الى بعث الامبراطورية العربية فحسب ، بل كان الغرض الرئيسي منه تنظيم الدفاع الذاتي واتخاذ التدابير الكفيلة بانماء الثقافة العربية وحمايتها. وقد كان لمقررات المؤتمر صداها في افريقيا الشمالية حيث وجد العلماء (رجال الدين) من شجعهم على تبني المفهوم الجديد للاسلام : الاسلام الديني والسياسي الذي ينبغي للعروبة ان تحله محله اللائق في الدولة ، ملكية كانت او ذات نظام جمهوري ، ما دام بعث الخلافة يصطدم بعقبات غير قابلة التذليل .

تقدم معنا ان بريطانيا العظمى شجعت على قيام دول عربية جديدة في الشرق الادنى ، على امل ان يخضع الهاشميون هذه الدول لسيطرتهم ولاشرافهم . ولئن تكن الاحداث الدولية والمحلية قد حالت دون اتحاد هذه الدول مؤلفة دولة فيدرالية ، فقد كان من نتائجها تبلور الشعور القومي العربي الذي رسخ في الاذهان فكرة الامة الواحدة على تعدد الاوطان ، بما يشكل مرحلة عظيمة الاهمية في تطور الاسلام ، ويتجاوب واماني قادة الرأي في حوض المتوسط الشرقي .

وفي ٢٢ آذار ١٩٤٥ اجتمع في القاهرة ممثلو مصر والعربية السعودية وسوريا ولبنان وشرق الاردن واليمن والعراق ، ووقعوا على ميثاق اتحاد الدول العربية (الجامعة العربية) محققين بذلك الحلم الذي راود مخيلة فيصل الاول وشكيب ارسلان وسواهما . وقد كان اشتداد ساعد الحركة الصهيونية في فلسطين احد العوامل التي عجلت بعقد الميثاق . اما العامل الرئيسي فهو ، ولا ريب ، شعور الدول العربية بان كيانها بات مهدداً بعد انقسام العالم معسكرين ، وان الحفاظ على هذا الكيان لا يكون الا باتحادها وتضامنها .

اما منهاج دول الميثاق فقد اجمله ناطق رسمي فيما يلي :

– الحفاظ على استقلال الدول اعضاء الجامعة .

– العناية بالقضايا ذات العلاقة بالاقطار العربية وبمصالح هذه الاقطار.

وجاء في احد ملاحق الميثاق ان مجلس الجامعة لا يسعه الاهتمام باماني الاقطار العربية غير المنظمة الى الجامعة والعمل على تحقيقها .

وهكذا يتضح لنا ان الميثاق هو اكثر من اداة دفاعية ، انه وسيلة للتوسع تهدف الى تحقيق الوحدة العربية والمطامح العربية . وقد رجحت في هذه المؤسسة كفة مصر بعدد سكانها البالغ ثمانية عشر مليوناً ، وبثروتها الزراعية ، وتجهيزها الاقتصادي ، وصناعتها الآخذة بالنمو .

ولا بد من القول ان «الجامعة العربية» اصطدمت منذ اللحظة الاولى بواقع في العالم الاسلامي يجب ان يحسب له حساب . فالعنصر العربي واللغة العربية لم يبقيا، في نظر بعض الشعوب ، الاساس الذي يجب ان يرتكز عليه نمو الشعوب الاسلامية وتطورها . وقد اتجهت انظار الجامعة العربية اول ما اتجهت الى تركيا الحديثة . ويقول بيار راندو في مقال نشرته له « مجلة افريقيا وآسيا » في العام ١٩٤٨ : لقد ابلغت تركيا دول الجامعة انها مستعدة لتأييد كل محاولة تهدف الى التوفيق بين الدول العربية واوروبا في نطاق ميثاق متوسطي . ويبدو ان انقره لا ترفض المقترحات والمشروعات التي تعرض عليها في الشرق الادنى . ألم يصرح سفيرها في القاهرة في خريف ١٩٤٧ ان بلاده مستعدة للانضمام الى الجامعة العربية عندما يجيز دستور هذه الجامعة مثل هذا الانضمام ؟ ولكن اذا كانت انقره تذهب في المسايرة الى حد الترحيب بكل ما يعرض عليها ، فلا ننسى ان بعض المشروعات

الشرقية تستدعي ، على بساطتها ، التفكير والدرس العميقين . ففي خريف ١٩٥١ اقترح رئيس مجلس الشيوخ العراقي انشاء جبهة اسيوية محورها انقره – كاراتشي – كلكوتا . وبعد اسابيع صرح الملك عبدالله لصحيفة تركية بانه يودلو تعود تركيا الى حمل راية الاسلام مجدداً . ألا تدل هذه الاقوال على اهمية المكانة التي لتركيا في العالم الاسلامي ؟ ولكن انقرة امتنعت حتى الان عن وسم سياستها بطابع اسلامي او شرقي .

ان الجامعة العربية التي ندبت نفسها لتقوية العروبة ودعمها ، تجد نفسها مضطرة للعود الى الشعور الديني كلما ارادت تحريك الشعوب الاسلامية ، اي ان هذه الحركة السياسية في الاصل تستنجد بالرابطة الاممية التي هي الاسلام كلما هبت للدفاع عن مصالح الشعوب الاسلامية في العالم . وهذا ما يحدث عندما تهتم الجامعة بمصير مسلمي افريقيا الشمالية ، وتساند في القاهرة امثال عبد الكريم وابو رقيبه وسائر زعماء الحركات الاسلامية في تونس والجزائر ومراكش . وباسم الاسلام تقيم الجامعة اطيب العلاقات مع المنظمات المماثلة في الباكستان ، حتى في الحالات السياسية البحتة .

وقد تجلى نشاط الجامعة العربية اكثر ما تجلى في الشرق الادنى . وتجسد بادىء ذي بدء في الوقوف بوجه اسرائيل . ولكن الخلافات بين ابن سعود وعبد الله بن الحسين وفاروق ملك مصر قد اضعف مركز الجامعة في هذا الصراع ، وزاد مركزها ضعفاً تنكر بريطانيا لها بعد ان شجعت على قيامها ، لان الجامعة وقفت دائماً في صف اعداء الانكليز في مصر والسودان وحتى في اندونيسيا والهند . وكشف النضال ضد اسرائيل عن امكانيات البلدان العربية في

الشرق الادنى .

لقد كان قيام دولة اسرائيل في فلسطين وليد الحركة الصهيونية . فمنذ تسعة عشر قرناً والشعب اليهودي المنتشر تحت كل كوكب يحلم بالعودة الى صهيون . وكانت الحركة الصهيونية في الاصل حركة دينية وصوفية ، ثم ارتدت طابعاً دينياً – سياسياً ، واستطاعت في النهاية ان تحقق امنية اليهود بانشاء دولة اسرائيلية في صهيون القديمة .

اثيرت المسألة اليهودية في الامبراطورية العثمانية في مطلع القرن العشرين . ففي ١٧ ايار ١٩٠١ استقبل السلطان عبد الحميد الزعيم الصهيوني هرزل الذي يعد بحق مؤسس الحركة الصهيونية والذي وجه الحركة في المؤتمر الاسرائيلي الذي عقد في لندن سنة ١٩٠٠ توجيهاً يتفق ومصالح بريطانيا العظمى . وفي المقابلة قال السلطان لهرزل : « كنت دائماً ولا ازال صديقاً لليهود ، واني لاعتمد في تصريف شؤون السلطنة ورعاية مصالحها على اخلاص رعاياي من مسلمين ويهود . اما سائر رعاياي فثقتي باخلاصهم ضعيفة . » فاجاب هرزل : « نحن مستعدون لمساعدة تركيا في شتى الحقول ، لاننا مقتنعون بانها قادرة على تجديد قواها الحيوية . » وهنا طلب السلطان من زائره ان يدعو اليهود الى المساهمة في تحسين مالية الامبراطورية العثمانية في مقابل السماح لهم بانشاء مستعمرات ضمن المناطق التي يقع عليها اختيارهم . وقيل ان هرزل وعد بتقديم مليوني ليرة استرلينية ، ولكنه عجز عن تأمينها . وهكذا اخفقت اولى المحاولات السلمية لتحقيق حلم صهيون بالاتفاق مع عبد الحميد الذي كان ضعيف الثقة بالعرب .

وفي هذه الاثناء تبنى المـالبون في انكلترا الحركة الصهيونية وقرروا دعمها . وسرعان ما نشطت الدعاوة للحركة في كل مكان ،

وايدها الاسرائيليون في مشارق الارض ومغاربها . وفي الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧ ادلى لورد بلفور وزير الخارجية في الحكومة البريطانية بتصريح اكد فيه عزم بريطانيا العظمى على انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . وفي الوقت نفسه كان المسؤولون الانكليز يبذلون للعرب وعوداً سخية . فادى هذا التناقض الى ما نشهده من نزاع بين العرب واليهود .

وما ان وضعت عصبة الامم فلسطين تحت الانتداب البريطاني حتى بدأ العمل في انشاء الوطن القومي اليهودي الذي استحال فيما بعد دولة صهيونية هي اسرائيل . ولم يقف العرب موقف المتفرج من تدفق اليهود على البلاد ، فاحتجوا على الهجرة اليهودية ، وعملوا على إثارة شعور العداء للسامية في العالم الاسلامي . ولما لم تجدِ الاحتجاجات فتيلاً ، تألفت اللجنة العربية العليا ، وما لبثت الاضطرابات ان عمت فلسطين . فقرر البريطانيون تقسيم البلاد الى منطقة عربية واخرى يهودية ، على ان يتعاون ممثلو المنطقتين في نطاق مجلس تشريعي يعاون السلطة التنفيذية . ولكن العرب واليهود رفضوا المشروع . وفي العام ١٩٣٩ نشرت بريطانيا العظمى كتاباً ابيض حددت فيه شكل الحكم في فلسطين لمدة عشر سنين . وبعد انقضاء هذه المدة تنتهي مهمة بريطانيا كدولة منتدبة ، ويتعاون في فلسطين المستقلة العرب واليهود . وعالج الكتاب الابيض مسألة الهجرة ، فحدد عدد اليهود الذين يسمح لهم بدخول البلاد سنوياً بعشرة آلاف ، على ان تمنع الهجرة الى البلاد منعاً باتاً بعد سنة ١٩٤٤ الا اذا وافق العرب . وحظر الكتاب بيع الاراضي من اليهود في بعض المناطق العربية .

وقد رفض الطرفان المتنازعان هذا الحل . وشعر الانكليز ، بعد

ان وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها ، بان سياستهم في فلسطين قد اخفقت ، فلا هي ارضت اليهود ولا هي ارضت العرب . وازداد هذا الشعور في العام ١٩٤٥ عندما طغت موجة الارهاب اليهودي ونشطت المنظمات كشترن والهاغانا والايرغون لحماية الهجرة السرية التي ساهمت في تنظيمها الجمعيات الصهيونية في اميركا واوروبا . ولما حاولت السلطات الانكليزية ، رغبة ً منها في استرضاء العرب ، مكافحة هذه الهجرة مكافحة جدية انبرى لها الارهابيون واستطاعوا مضايقتها وحماية قوافل المهاجرين المقبلين من اوروبا الوسطى وبعض الاقطار الافريقية . امـــا اليهود الذين آثروا البقاء حيث هم ، فقد تتبعوا بلهفة الصراع القائم في فلسطين ولم يضنوا على اخوانهم فيها بالتشجيع.

وبديهي ان يحتج العرب بقوة على اتساع نطاق الهجرة . وكانت اللجنة العربية قد تركت مكانها للجامعة العربية التي ناصبت الوطن القومي اليهودي العـداء منذ اللحظة الاولى وراحت تحرض الدول العربية على التدخل عسكرياً . وحيال موجة العداء اليهودي – العربي المشترك قررت بريطانيا العظمى الانسحاب من فلسطـين تاركة للامم المتحدة مهمة اعادة الامور الى نصابها في مـــا سمته « وكر الزنابير الفلسطيني » . وقد اقترحت الامم المتحدة بايعاز من الحكومة الاميركية تقسيم البلاد بجعلها ثلاث مناطق ، فرفض الطرفان المتنازعان هذا المقترح . وفي كانون الاول ١٩٤٧ قررت الجمعية العمومية باكثر من صوت واحد تقسيم فلسطين بجعلها دولتين احداهما عربية والاخرى يهودية . فقامت على الاثر دولة اسرائيل ، ولم يتم انشاء الدولة العربية ، بما ادى الى تفاقم الشعور العدائي ضد السامية في العـالم الاسلامي ، وسبب نشوب نزاع مسلح بين الدولة الجديدة

ودول الجامعة العربية . وقد كانت مساهمة بعض هذه الدول في النزاع اسمية اكثر منها عملية . واستطاع الاسرائيليون الصمود في وجه الجيشين السوري واللبناني ، ونجحوا ، بعد معارك طاحنة ، في رد الجيش المصري على اعقابه . وانتهز الانكليز الفرصة فانزلوا قوات في العقبة بحجة حماية قناة السويس والاردن . ويمكن القول ان هذه الدولة العربية قد افادت من النزاع الذي انتهى في غير مصلحة دول الجامعة . ذلك ان الملك عبد الله امسك عن استغلال الانتصارات الاولى التي احرزها جيشه إمـــا لانه لم يشأ المجازفة بالفرقة الآلية الوحيدة التي لديه ، او لانه حرص على عدم اغضاب اسرائيل واميركا التي تحميها . وقد اكتفى الملك باحتلال الضفة الغربية من نهر الاردن وحيز من مدينة القدس ، مضاعفاً بذلك رقعة مملكته وعدد رعـــاياه . ولئن دل مسلك الملك عبد الله على شيء فعلى عجز الجامعة العربية عن توحيد كلمة الملوك والرؤساء المتنـافسين قبل مجابهة العدو المشترك . وهكذا تكشفت الجامعة عن هيئة عاجزة عن ادارة الدفة ، مما كان له اسوأ وقع في العالم الاسلامي .

ارسلت الامم المتحدة الى فلسطين ، والحرب فيها سجال ، بعثة مهمتها درس الحالة عن كثب . وكان رئيس البعثة الكونت برنادوت الذي سقط صريعاً فيما بعد . اما الاعضاء فقد كانوا ضباطاً عظاماً يمثلون امماً مختلفة . وافلحت البعثة في حمل الطرفين المتنـازعين على التهادن مرتين . بيد انها لم تتوصل الى نتائج ايجابية في الحقل السياسي . ويبدو ان رفض البلدان العربية مشروع التقسيم الذي اقرته الامم المتحدة قد حدا بالولايات المتحدة الى اعادة النظر في سياستهـــا المشرقية على ضوء ما لهـا من مصالح اقتصادية ، وما تتوقعه من

تطورات قد تجرّ الى نشوب نزاع مسلح بينها وبين الروس . اما الاتحاد السوفياتي فقد كان في عداد مؤيدي مشروع التقسيم بصفة كونه عضواً في الامم المتحدة . وعندما سعت اسرائيل للحصول على قرض (١٩٤٩) ابدت موسكو استعداداً لمد الدولة الناشئة بما تحتاج اليه ، ولكن الماليين الاميركيين الذين كانوا مترددين بادروا الى تقديم القرض المطلوب . وهكذا حافظت اميركا على مركزها الممتاز في اسرائيل . وفي هذه الاثناء ، وبينما كان مجلس الامن يدرس النزاع وبواعثه والحلول الممكنة ، كان الاردن واسرائيل يقتسمان فلسطين واضعين الامم المتحدة والجامعة العربية امام الامر الواقع . وخيّل الى المراقبين ان اتفاقاً جدياً تعقده الدولتان من شأنه ان يسهل مهمة الجمعية العمومية للامم المتحدة على ايجاد تسوية للقضية ، ولكن هذا لم يكن رأي الجامعة العربية عموماً ومصر على الاخص . فقد انتقدت الجامعة موقف الاردن ورفضت الاعتراف باتفاقه الموقت مع اسرائيل .

ولا ننسى ان حل المعضلة الفلسطينية على الصعيد السياسي هو رهن بحل مسألة القدس . ففي هذه المدينة تتجمع الاماكن التي يقدسها اليهود والنصارى والمسلمون ، ويفتدونها بارواحهم . وفي كل عام يحج الى القدس آلاف المؤمنين النصارى ليتبركوا بلمس قبر المسيح ، واليهود ليصلّوا في المكان الذي كان يقوم عليه هيكل سليمان ، والمسلمون ليصلّوا في المسجد الاقصى . ولا شك في ان اتفاق الفرقاء الثلاثة حول حماية هذه الاماكن يشكل خطوة حاسمة نحو ازالة بواعث النزاع بين الطوائف الموحدة ... ولكن التفاهم حول هذه المسألة الشائكة بعيد الاحتمال ، لان اليهود يحلمون باعادة بناء هيكل

سليمان ، لان حائط المبكى وحده لا يرمز الى انبعاث صهيون . واعادة بناء الهيكل يترتب عليها هدم المسجد الاقصى الذي يقوم على انقاضه . ومن تحصيل الحاصل القول ان العرب لن يسمحوا بهذا . ولا ننسى ان التنافس على اشده بين الطوائف المسيحية نفسها حول صيانة الاماكن المقدسة . اما قرار الامم المتحدة القاضي باخضاع القدس انظام دولي (تدويل القدس) فقد قاومه العرب واليهود مقاومة شديدة . ولا شك في ان نجاح لايك ساكسيس في حل المعضلة يكون امراً مرغوباً فيه ، ولكن الامم المتحدة غير مؤهلة ، على ما يبدو ، لتسوية خلاف ذي طابع ديني – سياسي . والوسيلة الوحيدة لحل معضلة القدس هي ان يتصدى لمعالجتها زعماء المسلمين واليهود والنصارى على صعيد الايمان بوحدانية الخالق . ولكن قبل القيام بمحاولة من هذا النوع ينبغي للجامعة العربية ان توحد كلمة اعضائها في هذه المسألة . فمصر والاردن معارضان لتدويل القدس ، في حين تؤيد دول عربية المشروع لان الوضع الراهن في المدينة المقدسة وضع غير طبيعي .

ولئن تكن الجامعة العربية قد اخفقت على الصعيد السياسي فلا ريب في انها حافظت على نفوذها في الحقل الديني . وقد دعا امينها العام عبد الرحمن عزام باشا الى عقد سلسلة مؤتمرات لدرس الشؤون العربية العامة . وانشأت الجامعة مكاتب للدعاوة في العواصم الغربية . وارسلت مراقبين الى المؤتمرات الدولية واجتماعات الجمعية العمومية للامم المتحدة حيث تطمح الى انتزاع اعتراف بصفتها الاقليمية ، والى قبولها عضواً في المنظمة الدولية .

ويمكن القول ان الجامعة العربية هي امتداد العروبة حتى طوروس

شمالاً وافريقيا جنوباً وغرباً، وانها تمثل اسلام المتوسط الشرقي، وتهتم بالحفاظ على الرابطة الاسلامية. ولا شك في ان نشاطها في هذه الحقول جدير بان يثير اهتمام المراقبين، لان الجامعة مدعوة الى تمثيل دور خطير في المأساة الروحية الكبرى التي يعيشها المفكرون في البقعة الممتدة من الصين حتى مراكش، اذ يجدون انفسهم حائرين بين تقاليد الماضي ومتطلبات التطور المعاصر. ان العروبة لا تريد التنكر للماضي. بيد ان تعدد العناصر والاديان في آسيا الصغرى يهيب بها للعمل على اقناع الشعوب الاسلامية بان كياناتها المنسجمة، وحتى اندماجها في دولة واحدة، هي الوسيلة الوحيدة التي تكفل استمرار تطورها بشكل يجعل امانيها المشروعة ممكنة التحقيق.

اما اسرائيل فتبدو وكأنها مؤهلة لان تكون حصن الحضارة الغربية في وجه فوران آسيا حيث يتطور الاسلام نفسه تطوراً سريعاً. وتبدي الولايات المتحدة الاميركية اهتماماً متزايداً بالدولة اليهودية الناشئة. ويرجو العاملون في سبيل التوفيق بين العرب واليهود – يعاونهم الوقتُ في مهمتهم – ان تكون المصالح المالية والاقتصادية المشتركة في رأس العوامل المعجلة باحلال الوئام محل الخصام. بيد ان الاحقاد يمكن ان تفجرها، بين ساعة واخرى، المصالح الاجنبية المتضاربة.

لقد اخفقت الجامعة العربية في توحيد كلمة الدول الاعضاء يوم قررت الوقوف في وجه اسرائيل. واخفقت كذلك في توحيد كلمة دولها في العام ١٩٥١ عندما شاقها ان تتأثر خطى الهند فتعرض وساطتها في النزاع الكوري وتلزم جانب الحيدة المطلقة في اجتماعات

الامم المتحدة . ولكن العراق ولبنان سارعا في اجتماعات لايك ساكسيس الى تأييد القرار الاميركي القاضي بشجب تدخل الصين الشيوعية في كوريا وانزالها منزلة الدولة المعتدية . اما مصر والعربية السعودية وسوريا فقد استنكفت عن التصويت .

انصرم العام ١٩٥١ دون ان يطرأ تحسن ، ولو طفيفاً ، على العلاقات بين دول الجامعة العربية واسرائيل . وفي ٢٢ تشرين الثاني من العام نفسه اوقفت لجنة التوفيق الدولية نشاطها نهائياً لان مساعيها اصطدمت بعناد الطرفين المتنازعين . وواضح ان استمرار الهجرة اليهودية الى اسرائيل وما ينجم عنها من مضاعفات مالية واقتصادية هما من بواعث تزايد التوتر واستحالة التوفيق بين اليهود وجيرانهم . الا ان هذا لم يمنع سوريا ولبنان واسرائيل من الترحيب بانشاء ميثاق مشترك للدفاع عن الشرق الاوسط .

ان اعتراف الامم المتحدة بالجامعة العربية قد عزز مركز الجامعة ولا ريب . ويبدو ان مصر تريد ان توجه الحركة العربية فكرياً وروحياً . ففي العام ١٩٥١ تبنت الجامعة مقترحاً مصريا يقضي بالسعي في سبيل انشاء حلف بين النصارى والمسلمين يمكنه الوقوف في وجه الشيوعية ، وبذلت مساع لدى الفاتيكان في هذا السبيل . ووافق الفكرة قائداً صينياً مسلماً من انصار المارشال شان كاي شك ، فاذاع من فورموزا نداء بدعوة النصارى والمسلمين الى التكاتف .

كيف تتطور الدول العربية

كان من نتائج احتكاك الشعوب الاسلامية في الشرقين الادنى والاوسط بالحضارة الغربية نمو فكرة الوطن دون ان يترتب على هذا التطور تراخ او اهمال في حقل النشاط الاسلامي العام. وقد تميز تطور الشعوب الاسلامية في الشرق بنزعة صريحة نحو انشاء عدد من الاوطان العربية تطغى فيها الاكثرية على الاقليات العنصرية والدينية. بيد ان هذه الاوطان تفتقر في محاولتها بلوغ مستوى الدول الحديثة الى الطاقة البناءة وتكنيك العالم الخارجي. فالاسلام، الذي تولى شؤونه في الماضي قادة عظام، والذي لا يعدم في ايامنا قادة عظاماً، يفتقر الى الملاكات التكنيكية، ولا يمكنه في الوقت الحاضر ان ينشئها. يضاف الى هذا ان في جملة العوامل التي تساعد على نشوء امة ما الكيانَ الجغرافي. وهذا العامل غير متوفر للدول العربية. فخط الفرات — دجلة — البحر الميت هو الحد الفاصل بين حوض المتوسط وآسيا، وقد سلكت الغزوات التاريخية الكبرى الطريق الساحلي بين بيروت وطرابلس. ومنذ ان زالت بين سوريا الحالية وبلاد ما بين النهرين معالم الحضارات القديمة التي كان في عهدها وادي الفرات والبقاع الممتدة بينه وبين دجلة آهلة بالسكان تحرث وتزرع على نطاق واسع — منذ ان زالت معالم الحضارات القديمة اغفل شأن الري، وقامت البطاح نصف الصحراوية مقـــام

السهول الصالحة للزراعة والواحات الخضراء[1]، مشكلة" فاصلاً طبيعياً بين بلدان المشرق والداخل . وقبل قيام هذا الفاصل كانت القوافل تقوم من حلب ودمشق سالكة وادي الفرات ودجلة في اتجاهها نحو كردستان وبلاد فارس . وفي عهد الانتداب الفرنسي وضعت تصاميم لمشاريع ري من شأنها اعادة الصلة بين سوريا والعراق، ويفصل بينهما اليوم ثغرة طبيعية[2] .

ان تطور الدول العربيـــة تطوراً كاملاً لن يتحقق الا اذا توافرت لها الملاكات التكنيكية ، واخذت هي بعين الاعتبار الواقع الجغرافي .

منذ العام ١٩٢٠ حالت الاحداث الدولية العالمية ، مضافة الى ما يقوم بين العناصر والطوائف الدينية من عوامل النفور ، دون انتظام الاقطار العربية في دولة فيدرالية ، فانشأت دولاً صغيرة تفصل بينها حدود هي في الغالب حدود مصطنعة . وقد ادركت هذه الدول او الدويلات ان لا غنى لها عن مساعدة الاجنبي ، وانها مضطرة لطلب هذه المساعـــدة من الروس او من منافسيهم الانكلوسكسون ، مع العلم ان فرنسا ، التي لم تنهج حيال دول الشرق الادنى سياسة مرنة ، مستمرة ، ليست في وضع يؤهلها لان تقدم الى

١ يقال ان هارون الرشيد كان ينتقل من بغداد الى الرقة خلال الاشجار الوارفة الظل .

٢ اسكن الفرنسيون في البطاح الممتدة بين دير الزور – الحسكة ودجلة جماعات الاشوريين الذين لجأوا الى سوريا والاكراد الذين انضموا اليهم، وعهدوا اليهم باحياء تلك المنطقة بعد انشاء نظام ري يستند الى الفرات والخابور، ولكن معارضة حكومة دمشق حالت دون المضي في المشروع .

هذه الدول رجال التكنيك الذين تحتاج اليهم . اما الانكليز الذين فقدوا مركزهم الممتاز في الشرق عقيب انتهاء الحرب العالمية الثانية فانهم يعملون جاهدين في سبيل الابقاء على ما بقي لهم من نفوذ ومصالح في منطقة هي مفرق طرق بحرية وجوية ، تراقب منه التجارة العالمية بين الشرق والغرب . ولئن يكن الخطر الاصفر في آسيا قد اهاب بالبيض الى التضامن والتكاتف ، فالتنافس بينهم في الشرق الادنى قد بلغ حده الاقصى . وقد عرف العرب كيف يستغلون هذا التنافس لمصلحة دعاوتهم الموجهة ضد اسرائيل ، الدولة التي يعرقل وجودها حل قضايا الشرق الاوسط . وجدير بالذكر ان كل دولة من الدول الناشئة تقود زورق مصيرها باللباقة التي يتصف بها الشرقيون ، وسط العقبات التي تقيمها في طريقها المنافسات الاجنبية: فاسرائيل ولبنان ينشدان المساعدة الاميركية ، والاردن والعراق وسوريا — مع بعض التحفظ — تنشد مساعدة بريطانيا العظمى. ويمكن القول ، بعد ان انضمت تركيا الى ميثاق الاتلنتيك ووقعت ايران تحت سيطرة اميركا ، ان الانكلوسكسون يتمتعون بالنفوذ الاقوى في الشرق الادنى ، مما يصح معه القول ان اقطار هذا الشرق ستقف بجانب الغرب في النزاع العالمي المقبل .

ومن تحصيل الحاصل القول ان روسيا لا تقف موقف المتفرج مما يجري على مقربة منها . وقد جرى على الالسنة حديث هجوم روسي محتمل باتجاه سوريا ومصر . وليس من يجهل نفوذ موسكو في اوساط الارمن الذين لجأوا الى المشرق بعد الحرب العالمية الاولى . وليس من يجهل ان المتروبوليت الارثوذكسي زار فلسطين ليستميل الى السياسة السوفياتية النصارى من الروس . وتخص الدعاوة الروسية

الاكراد ببعض اهتمامها ، ولا تنسى بطبيعة الحال ايران والافغان . وفي الوقت نفسه تمهد الشيوعية لتسلل روسي محتمل ، دون ان تصيب نجاحاً مذكوراً ، في مناطق لا يزال الشعور الديني فيها قوياً بين البيئات الاسلامية والمسيحية على السواء ، بدليل البيان الذي اصدره عميد الازهر في القاهرة بشجب الشيوعية ، متأثراً بذلك خطى الفاتيكان. ولكي يتسنى لدعاوة الكرملن البارعة التأثير في المسلمين يجب ان يسبق ذلك انقلاب اسلامي شامل يتناول اسلام المتوسط بنوع خاص . وانقلاب كهذا لا يمكن ان يحصل الا بغليان يبدأ في الشرق الاقصى ويمتد بعض الوقت الى آسيا الصغرى وهو محتفظ بقوته . وليس ثمة ما يدل على ان هذا الغليان وشيك الحصول .

قلنا ان الدول العربية في الشرق الادنى لم تندمج في دولة واحدة ، وان جهود الجامعة العربية في هذا السبيل قد ذهبت سدى بالرغم من وجود عدو مشترك هو دولة اسرائيل . ونذكر استيفاء للبحث انه خيل للهاشميين في العام ١٩٤٩ ان الوقت قد حان لتحقيق مشاريع الوحدة او الاتحاد إما بانشاء سوريا الكبرى او بضم سوريا الى العراق (الهلال الخصيب) ، ولكن مصر والسعودية وسوريا نفسها قاومت الفكرة ، كما قاومتها تركيا متسلحة بمعارضة اميركا لكل تعديل اقليمي في الشرق العربي . وقد رأينا ملك الاردن ووصي العراق يممان وجهيهما شطر طهران ، على امل ان يلقيا لديها التأييد الذي ضنت به عليهما الجامعة العربية وتركيا المرتبطة مع الاردن والعراق بمعاهدتي صداقة . وجرى على السنة الناطقين الرسميين في عمّان وبغداد حديث عن قرب قيام « اسلامستان » او كتلة اسلامية اوسع نطاقاً من الكتلة المتوسطية التي تدعو تركيا الى انشائها .

ولكن انقره لم تتحمس للفكرة ، وجارتها القاهرة والرياض .

وهكذا تبدو لنا مشروعات وحدة الشعوب الاسلامية سابقة لاوانها ، ولكن التلويح بها او مجرد الحديث عنها يشجع العصبة الاسلامية في الباكستان والجمعية الاسلامية العالمية في كراتشي على التفكير جدياً في انتزاع المبادرة من العرب وتزعم الحركة الفكرية والروحية في العالم الاسلامي . وقد تكون مشروعات الوحدة مجرد عملية جس نبض من جانب الهاشميين ليذكروا الناسين والمتناسين بانتسابهم الى النبي وبالدور الذي مثلته العترة الهاشمية في تاريخ العرب والاسلام . ومهما يكن من امر فالدول العربية في الشرق الادنى ليست في وضع تستطيع معه انشاء نظام اتحادي وطيد الدعائم ، فالمرتكز الفيدرالي الذي كان يمكن الاعتماد عليه قد زال بزوال الخلافة .

ولكن ليس معنى هذا ان تطور الشعوب العربية قد وقف عند هذا الحد . فهو مستمر سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، بالرغم من العقبات التي تعترضه ، ومن اليقظة القلقة التي تبديها الدول الاوروبية والاميركية . ففي ١٥ اذار ١٩٤٩ اقدم الملك عبدالله على ضم جزء من فلسطين الى مملكته غير مكترث لقرارات الامم المتحدة ، معتمداً على تأييد الانكليز الذين سارعوا الى احتلال العقبة تخويفاً لاسرائيل . واعلن الامير ادريس السنوسي القيروان امارة مستقلة معتمداً على تأييد الانكليز قبل ان تقول الامم المتحدة كلمتها في مصير المستعمرات الايطالية السابقة . وفي صيف ١٩٤٩ زار لندن طلباً للمساعدة والتأييد المعنوي كلٌ من الملك عبدالله ووصي العراق ورئيس وزرائه والامير منصور السعودي . وعرّج بعض هؤلاء على مدريد

وهو في طريقه الى بلاده ، عملا بالحكمة القائلة ان صداقتين افضل من صداقة واحدة ، مع العلم ان الدكتاتور الاسباني يتتبع باهتمام تطور الاسلام المتوسطي .

وقد تقدم معنا في فصل سابق ان ابن سعود حاول التوسع على حساب اليمن فاصطدم بمقاومة الامام يحيى .

واستيفاء منا للبحث نأتي على ذكر سلطنات حضرموت وعمان ومسقط التي يمتد نفوذها الديني حتى زنجبار ، ولكنها لا تشعر بالتيارات التي تتجاذب باقي الاقطار العربية .

ان الاسلام في الشرق الادنى يتطور اذاً ، فهل يستمر في تطوره متوكئاً على سواعد الانكلوسكسون المسيطرين على اسواق بلدانه ؟ ليس ثمة ما يجيز القول ان قوة الدفع (الديناميسم) العربية والاسلامية تستطيع الحفاظ على طابعها الخاص ، مع العلم ان السيطرة الاقتصادية تطغى على النمو السياسي ، ففي عصر يقوم فيه للبترول عرش لا يمكن الاماني المحلية ان تأخذ مداها وان تفصح عن ذاتها بحرية[١] .

ان انابيب البترول العربي تمر في اراضي الدول العربية لتصل

[١] اذا كان العرب جادين في سعيهم الى انشاء امبراطورية عربية ، فعلى حكوماتهم ان تتحرر من الانانية المحلية ، وان تتجنب كل عمل من شأنه اقامة العراقيل في طريق الوحدة . ويجب ان يكون شعار العرب حكاماً ومحكومين : العروبة فوق الجميع . ان مطامع الملوك والرؤساء ، وتضارب المصالح الاقتصادية ، وضغط الدول الاجنبية التي تحاول كل منها الاستئثار باسواق البلاد العربية ، هذه العوامل مجتمعة حالت حتى الان دون قيام الوطن العربي .—(مجلة الرابطة العربية) .

الى المصب ، فعلى هذه الدول ان تأخذ بعين الاعتبار مصالح شركات النفط القوية . ولا شك في ان الشركات ستعرف كيف تحمي مصالحها سواء ساءت العلاقات بين الاقطار الاسلامية او تحسنت .

ولا بد من القول ان التنافس في الحقلين السياسي والاقتصادي بين المعسكرين الكبيرين من شأنه ان يعوق نمو الدول الاسلامية . ولكن من يدري ، فقد ينتفض الاسلام احدى انتفاضاته الرائعة ، وهو الذي اعتاد استخدام الاجنبي ، وقلما مكن الاجانب من اخضاعه لسيطرتهم .

فما عساه يكون مستقبل الشرق الادنى ؟ لقد كان الملك عبد الله شخصية قوية ، ولكن المسلمين كانوا يأخذون عليه ذهابه بعيداً في مسايرة انكلترا ، ولم يكن موقف مصر والسعودية منه ودياً ، اما تركيا فقد لزمت منه دائماً جانب التحفظ . وبعد وفاة الملك ارتاب المراقبون في قدرة الاردن على صون حدوده الحالية ، لان حدود اسرائيل الجغرافية هي على نهر الاردن والبحر الميت .

ان احتمال زوال الدولة اليهودية ليس موضع بحث . وقد يأتي يوم تندفع فيه هذه الدولة العتيدة نحو حدودها الطبيعية . اما الان فالعلاقات بين الاردن واسرائيل تكاد تكون عادية بفضل الاتفاق المعقود بينهما ، والذي لا يرجى منه الحؤول دون تجدد النزاع ما دامت مشكلة القدس قائمة . ولعل الحل الوحيد الممكن هو قيام اتحاد فيدرالي بين الدولتين ، على ان تكون القدس عاصمتها المشتركة . اما الاماكن المقدسة فيصار الى تدويلها عند الاقتضاء . وبديهي ان ترحيب الدولتين بهذا الحل يفترض تفهمهما لمصالحهما وعزمهما الصادق على ازالة بواعث النزاع .

وهنا لا بد من التساؤل ما اذا كانت اسرائيل تستطيع التفاهم مع لبنان حيث يشكل المسيحيون قوة لا يستهان بها ، ومع سوريا حيث يمكن ان يرحب العلويون والاسماعيليون والدروز والاكراد بنظام فيدرالي لا يغلب عليه الطابع العربي ؟ ذلك ان النظام الثيوقراطي في البلاد الاسلامية ، ولا سيما العربية ، يتمسك بالملكية كشكل من اشكال الحكم ، ولا يسع الملوك ، في سعيهم الى وسم الدولة بطابع علماني ، ان يغفلوا شأن مبادىء الدين الاساسية ، ولا شأن الاعتقاد الذي ما يزال سائداً : « لا خلاص خارج الاسلام » . وحتى في الجمهوريات العلمانية ، حيث تسيطر اكثرية اسلامية كتركيا مثلاً ، يتأثر نشاط الدولة الى حد بعيد بالانتفاضات الدينية ، ولا ننسى ان اسرائيل نفسها قائمة على اساس ديني . وهكذا نرى ان الشرق لم يتخلَّ بعد عن مفهوم « الامة الدينية » ، وان الدولة العلمانية المتسامحة مع كل الاديان لا تزال في الشرقين الادنى والاوسط تنقل خطى مترددة حائرة .

ما تستطيعه فرنسا في اقطار الشرق الاسلامية

ساهمت فرنسا ولا تزال تساهم مساهمة فعالة في نشر الحضارة . وليس من ينكر الدور الذي قامت به في المشرق . فمنذ عهد القديس لويس وفرنسوى الاول ما فتيء ابناؤها ينشرون نتاج الفكر الفرنسي، ويأخذون بيد تلك البلاد في معارج التقدم . وقد اكسب هذا الدور اهميةً خاصة ظهورُ فرنسا في تلك البلاد الاسلامية بصفة كونها حامية للنصارى.

ان حماية الاقليات المسيحية من كاثوليك وموارنة وارمن لم تبق ذات موضوع ، لان الدول العربية جعلت شعارها التسامح حيال « اهل الكتاب » ، واشركت الاقليات في ادارة شؤون الدولة ، وتعاون المسلمون والنصارى في نطاق العروبة . وقد كان على فرنسا ، التي لم تسلم من المنازعات الدينية والتي علمّت الناس معنى الحرية ، ان تساهم في تدعيم هذا الكونكورداتو الروحي في الشرق. ورأيناها بين ١٩١٥ (؟) و ١٩٤٥ تبذل في سوريا ولبنان مجهوداً طيباً في هذا السبيل ، وتعمل على تطوير البلدين سياسياً واقتصادياً . بيد ان سلسلة من الاخطاء ، مضافاً اليها التدخل الاجنبي ، عجّلت بتقلص نفوذ فرنسا وباحراز البلدين استقلالاً تشوبه حاجتهما الملحة الى المساعدة المالية والتكنيكية التي لا يمكنهما الحصول عليها خارج اوروبا او اميركا .

ان سياسة الفرنسيين في المشرق لم تسلم من المآخذ ، من ذلك انهم حاولوا توحيد ما لا يمكن توحيده ، وظهروا بمظهر حرّاس الحضارة لا ينازعهم في هذه الصفة منازع ، وخيل اليهم ان مجرد وجودهم في بلاد ما يجعل منهم اصدقاء الشعب ومحببهم اليه ، سواء دخلوا البلاد فاتحين او اصدقاء . وقد فاتهم ان العالم العربي ينشيء نفسه ، ويجمع اشتاته ، ويحاول انماء شخصيته ، بالرغم من العقبات التي تعترض سبيله ، وقد هب بادىء ذي بدء لمقاومة الانتدابات التي فرضت عليه ، ولم يغتفر المسلمون لفرنسا سياسة العطف التي اختصت بها الاقليات .

اما وقد زالت الانتدابات واستقلت الدول العربية في الشرق الادنى بادارة شؤونها ، فليس ما يستوقف النظر من شؤون العالم العربي — في الظاهر على الاقل — سوى تزايد المصالح البترولية واستمرار التنافس بين الملوك . ولكن اذا انعمنا النظر في انتفاضات الشعوب العربية ، نلاحظ انها تحاول النهوض معتمدة على الثقافة التكنيكية الحديثة ، وان « الامة الاسلامية » القائمة على مرتكز ديني بحت تركت مكانها لفكرة الوطن ، فقامت في الشرق الادنى بضعة اوطان ، وبدأت تسود فكرة فصل الدين عن الدولة ، وطغت العروبة في المشرق على الوحدة الاسلامية والوحدة العربية .

هذا في دنيا العرب . اما في البلدان والاسلامية التي تقطنها شعوب غير عربية فقد تخلت لغة القرآن عن مكانها للغات المحلية . ففي تركيا نقل الكتاب المنزل الى التركية ، وفي ايران الى الايرانية ، وفي البلدان الاسلامية الخاضعة للسيطرة السوفياتية نقل الى اللغة التركمانية . وهذا التطور الذي عرفت مثله النصرانية يوم كفت

الكنائس الاصلاحية او المجددة عن استعمال اللاتينية في الطقوس وتلاوة الانجيل . ولكنه في الاسلام اعمق اثراً واشد خطورة منه في النصرانية ، لان القرآن انزل بالعربية ، والتعمق بالدين يتطلب تضلعاً من هذه اللغة .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، ففي آسيا بدأت الشعوب تتطور على الصعيد القومي بمعزل عن الاعتبارات الدينية . فقد اغتالت يد اثيمة المهاتما غاندي لانه اراد توحيد الهند والحؤول دون انفصال الباكستان عن هندستان ، وها هي جمهورية اندونيسيا تسلك الطريق المؤدية الى الوحدة بدمج الجمهوريات الصغيرة ، اسلامية كانت او غير اسلامية . ومهما يكن من امر فالثابت ان الاسلام الاسيوي ولّى العروبة ظهره . وقد ادركت آسيا الصغرى هذه الحقيقة ، وندبت الجامعة العربية نفسها لوقف الموجة الاسيوية قبل ان تطغى على العروبة . اما افريقيا الشمالية التي بقيت عربية الطابع فانها تتبع باهتمام زائد جهود الشعوب العربية في الشرق الادنى .

في هذه الفترة العصيبة التي يجتازها العالم يجب ان يحسب حساب كبير لنشوء اسلام اسيوي مقابل الاسلام المتوسطي . ولا يسع فرنسا بطبيعة الحال ان تتجاهل ما يجري في آسيا الصغرى لان ما يحدث في هذه المنطقة يكون له صداه في افريقيا الشمالية . نعم ، لا يمكن فرنسا ان تتدخل مباشرة في الشرقين الاوسط والادنى ، ولكنها تستطيع ان تمثل دورها كدولة مجردة عن كل غاية . ولا بد من الاشارة الى ان العرب قد ادركوا ان بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الاميركية تولياتهم عناية خاصة لان

مصالحها تقضي بذلك . وان العديد من المسلمين المثقفين في بلدان المشرق يعترفون بمآثر فرنسا في بلدانهم ويرحبون باستمرار رسالتها الفكرية .

ولا ننسى ان عهد استمالة البلدان بحشو جيوب بعض الزعماء بالاصفر الرنان قد ولّى . وان لا بد من استمالة السواد الذي يتطور هو الآخر ، ويفكر ، وينتقد ، ويعرف كيف يكتشف اصدقاءه الحقيقيين وسط هذا الخضم من الدعاوات المغرضة والاخبار المغلوطة والتوجيهات المضللة . وقد رأينا هذا السواد يرفض التعاون مع قادته في بعض الحالات ، بما حمل هؤلاء على اعتماد البطش وسيلة لاخضاع السواد المتمرد ، وكانت مصر مسرحاً لاغتيالات سياسية الغرضُ منها اكراه الحكومة على تعديل موقفها من الدولة الاسرائيلية . ويبدو ان السواد في العالم العربي لا يشعر بميل شديد الى الانكلوسكسون . اما فرنسا التي احتفظت في الشرق بسمعة طيبة واستردت بسرعة النفوذ الذي افقدها اياه الاحتلال العسكري والاداري ، فليس ثمة ما يمنع استئنافها سياستها التاريخية في المتوسط وجعلها منسجمة والاحوال الراهنة . ولا ريب في ان الجامعة العربية ، بعد صيرورتها منظمة اقليمية ، وبعد ان يتم لها التحرر من السيطرة الانكليزية ، يمكنها ان تتطور لتصبح الهيئة الصالحة لتمثيل الاسلام السياسي في حوض المتوسط الشرقي ، والتوفيق بين الاسلام كدين والحضارة الغربية . واذا استثنينا تركيا ومصر والعربية السعودية التي تؤلف كيانات خاصة ، فقيام « ولايات متحدة » في المشرق قد يحل معضلة الشرق الادنى . ولبلوغ هذه النتيجة لا بد من تعاون المسلمين والنصارى واليهود على الصعيد القومي البحت ،

ويمكن فرنسا بصفة كونها دولة اسلامية ان تساهم في تحقيق هذه الخطوة الحيوية للسلم العالمي.

ان نمو الثقافة الفرنسية في المشرق لم يتأثر بزوال الانتداب . ويمكن القول ان الاقبال على المعاهد الفرنسية قد ازداد بعد تحرر هذه المؤسسات من سيطرة السلطات العسكرية والمدنية . فعلى فرنسا ، والحالة هذه ، ان تعزز نفوذها المعنوي في هذه المنطقة بسياسة نيرة وطويلة النفس . ان العالم الاسلامي يتجه الآن اتجاهاً وطنياً وقوياً . وهو لا بد محقق امانيه بفرنسا وبدونها . ولن تبقى افريقيا الشمالية بمعزل عن الحوادث . لقد ترك الفرنسيون في المشرق ، بالرغم من مساوىء الانتداب ، ما يذكرون معه بالخير ، فمن مصلحتهم ان يعترفوا بقيام الدول الناشئة وان يسهلوا نموها ويساعدوها بمجردين عن كل غاية . وبفضل هذا النهج الحكيم يمكن فرنسا اثبات وجودها في المتوسط الشرقي دون ان تغفل شأن مسألة الاقليات العنصرية والدينية التي قد تستغلها يوماً اوروبا – آسيا ، وتتخذ منها حجة ضد الحضارة المتوسطية . ذلك بان الكرملن ، مع تشديده على فصل الدين عن الدولة ، لن يتورع عن استخدام الاديان في تحقيق اغراضه السياسية . بيد انه لا يفوتنا ان اتجاه الشرق الادنى نحو علمانية الدولة ما يزال اضعف من ان ينال من التأثير القوي الذي للدين ، وان الديانات الموحدة الثلاث : الاسلام والنصرانية واليهودية ، مهما تفاقم بينها النزاع ، تعود فتتعاون على الصعيد السياسي اذا ما وقعت الواقعة بين القيم الروحية والنزعة المادية . وفي حال جنوح الاسلام الاسيوي الى التقرب من المعسكر المادي ، فلا يختلف اثنان في تأييد الاسلام

الاوروبي والعربي لمعسكر القيم الروحية .

ترى ، أيفهم المسلمون ان التمسك بالعروبة المطلقة في آسيا الصغرى الواقعة بين اوروبا – آسيا واوروبا – افريقيا من شأنه ان يجمد مدة طويلة مقدرات الشعوب الاسلامية ؟ ان تعدد العناصر والاديان، الذي كان في الماضي احد عوامل الشقاق والمنازعات الدموية ، يجب ان يكون اليوم من العوامل المؤدية الى زوال كل استثمار عنصري او ديني . وقد تحقق هذا في تركيا الحديثة ، ويبدو انه يتحقق في سوريا . ولا بد من لفت انتباه المسلمين الى ان العروبة ، هذه الانتفاضة العنصرية المنبثقة من الاسلام ، لا تجيز للعنصر العربي ان يعتبر نفسه ضرورياً لنمو الاسلام بوجه عام . لقد تقدم معنا ان تركيا والبلدان الاسلامية في آسيا الخاضعة للسيطرة السوفياتية نقلت القرآن الى اللغات المحلية ، وان الحركات القومية في آسيا تتسم بطابع علماني – ديني بصرف النظر عن المعتقدات الدينية والفوارق العنصرية . ولا شك في ان نمو هذه النزعة يحتاج الى مساعدة الاجنبي. وقد رأينا الدول تحدد موقفها في هذا الحقل . فبريطانيا العظمى تنشد مصلحتها اولاً ، ولكن سياستها العربية التي وضع اسسها لورد كورزون في العام ١٩٠٩ تتعارض وسياسة بلفور الصهيونية . وتتابع اميركا سياستها الرامية الى استعمار العالم اقتصادياً . اما روسيا السوفياتية فكونها دولة ملحدة لا يمنعها من تبديل موقفها اذا اقتضت مصالحها هذا التبديل . وبالانتظار تحاول الشيوعية القضاء على النفوذ الاسلامي في كل مكان . بقيت فرنسا الدولة العلمانية التي تحترم الاديان . ففي المشرق دافعت عن الاقليات، ولكنها لم تعترض سبيل الوحدة السورية. وفي افريقيا الشمالية حققت وحدة مراكش على حساب البربر . ولم

تتنكر في تونس للاماني العربية . وفي افريقيا السوداء اخذ عليها تساهلها حيال نشاط بعثات التبشير الاسلامية .

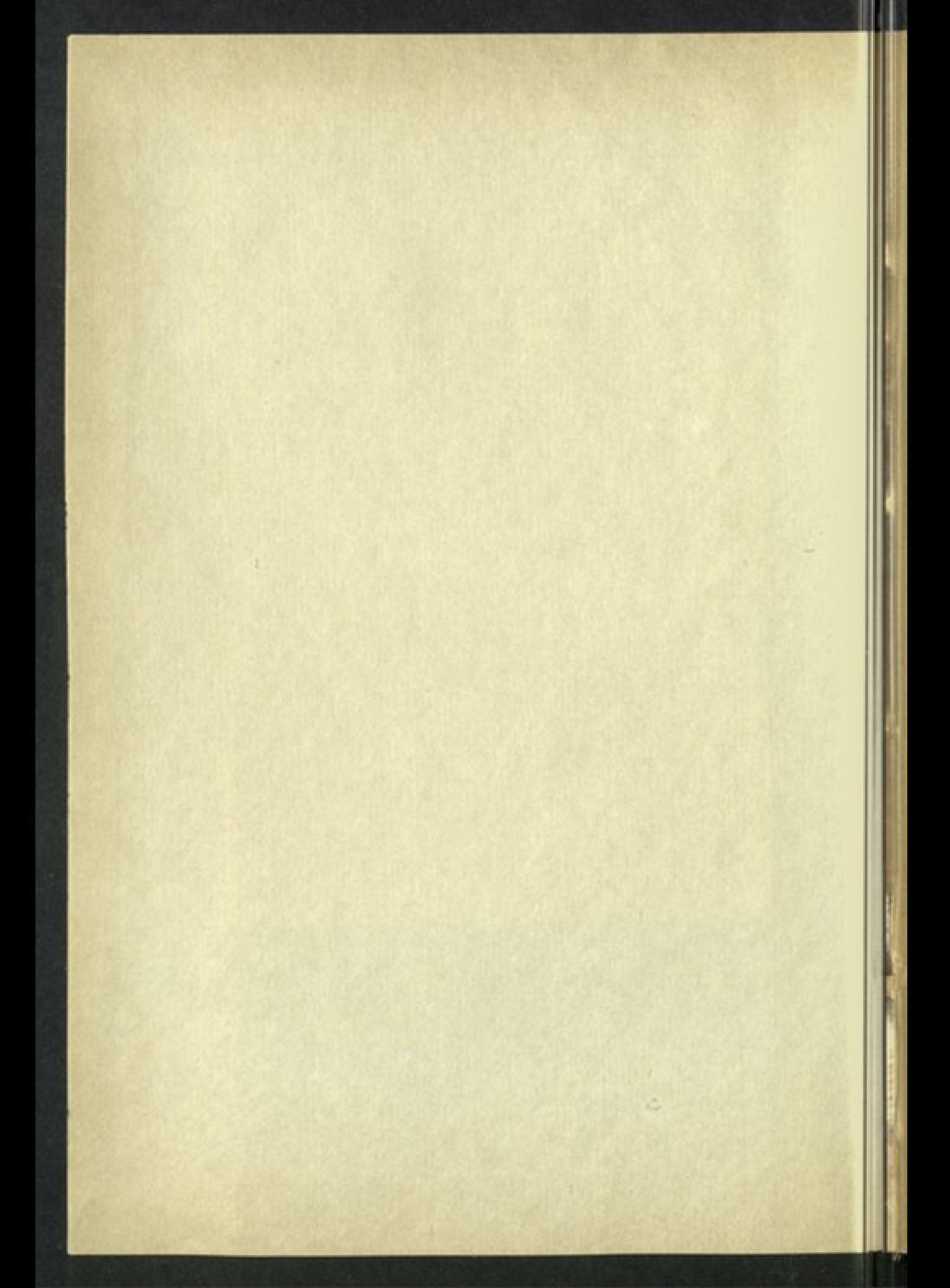
فاذا اقتنع مسلمو آسيا الصغرى بامكان انصهار العناصر في الدولة على اساس احترام الاديان وحقوق الاقليات العنصرية والدينية ، وادركوا ان مثل هذا التطور يساعد على قيام نظام سياسي منسجم ووطيد ، مع بقاء الاسلام محافظاً على طابعه وقواعده الاساسية ، واذا سلموا اخيراً بضرورة الاستعانة بالاجنبي ، فان ما تستطيع فرنسا تقديمه هو ولا شك ذو شأن وقيمة .

انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثاني ، وعنوانه :

المسلمون في آسيا

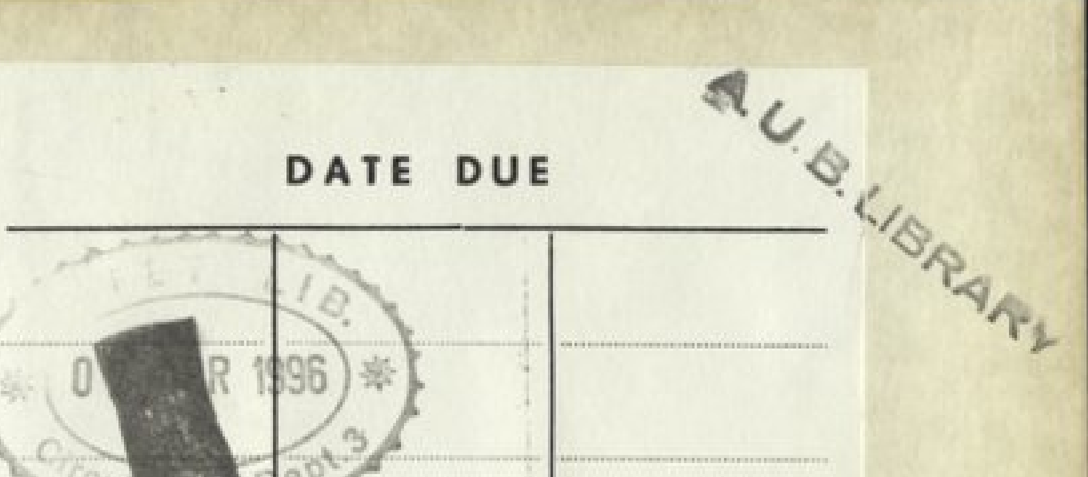
فهرست

مطبعة الاتحاد ، شارع الامير بشير – بيروت





DATE DUE







سلسلة رواية وادب وتاريخ ومغامرات

قروش لبنانية		
١٠٠	١ – ايلوئيز وابيلار	لويس الحاج
١٠٠	٢ – باغانيني ساحر النساء	رئيف خوري
١٠٠	٣ – بودلير في حياته الغرامية	الياس ابوشبكه
١٠٠	٤ – ميسالين الامبراطورة الوثنية ،	لويس الحاج
٢٠٠	٥ – ليدي هاملتن سفيرة الحب	باسيل دقاق
١٥٠	٦ – ديك الجن الحب المفترس	رئيف خوري
١٥٠	٧ – كاترين الروسية في احضان الحب ،	باسيل دقاق
٢٠٠	٨ – نابوليون وزوجته البولونية	باسيل دقاق
١٥٠	٩ – اللورد بيرون عاشق نفسه	انطون غطاس كرم
١٧٥	١٠– بولين بورغيز الشهوة الجامحة	باسيل دقاق
١٥٠	١١– المرأة في حياة ادغاربو	عبد اللطيف شراره
٣٥٠	١٢– فاغنر والمرأة	جورج جرداق
١٠٠	١٣– المركيزة دي بومبادور	خليل يونس
٢٢٥	١٤– مضاجع نابوليون الثالث	باسيل دقاق

الثمن : ٢٢٥ قرشاً لبنانياً